تَعرَّيْنا إلا قليلاً..

تَعرّيْنا إلا قليلاً..

رواية

إنتماء البريري

تصميم الغلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع:27228 /2015

I.S.B.N: 978-977-488-436-8

دار اكتب للنشر والتوزيع

OKTOB.NET

الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،

المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 – 01147633268

E – mail:daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 2016م

تَعرَّيْنا إلا قليلاً..

إنتماء البربري

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

ثمة مضامين خفيّة توجد في كل مكانٍ حولنا بعض التركيز أحيانًا لا ضيّر منه لنتأكد مَن الذي يعمل لأجل البشرية ومن الذي يعمل لأجل نفسه التي تُراوده و تقدّ قميصه المهترئ من دُبر كي يلتفت لأضغاث السلطة فيضاجعها "أيها العالم الرقيق الساذج لقد ابتلع معظمنا الطعم".



إلى الله.. أنا أُحبك..



سارة

باريس - 1982

يتحدث أحد أسفار التكوين عن الخلق مشيرة إلى الآتي:

" كان الإله يغني ويرقص ويهز خشاخيشه حين حلم حلمه في سحابة من دخان التبغ شاعرًا بالسعادة.. إلا أن الشك يبليه واللغز يحيّره.

حين رأت المرأة والرجل أن الإله حلم بهما كأنهما داخل بيضة كبيرة متلألئة يغنيان ويرقصان ويضربان بأقدامهما محدثين صخبًا؛ لأنهما كانا يتلهفان بجنون إلى أن يولدا، كانت السعادة في حلم الإله أقوى من الشك واللغز، وهكذا خلقهما.

قال الإله لنفسه في حلمه: "اكسر البيضة! فتولد المرأة ويُولد الرجل معًا، سيعيشان ويموتان معًا إلا أنهما سيولدان ثانيةً، ثم سيولدان

ويموتان من جديد، ثم سيولدان لن يتوقفا عن الولادة أبدًا؛ لأن الموت كذبة!"

أنهى الأستاذ ما كان يتلوه أمام الأطفال، نظر إلى "مُرقص" الذي يرفع يده طالبًا الأذن بالحديث، هزّ الأستاذ رأسه موافقًا على طلبه، وقف بتردد وهو ينظر إلى باقي زملائه، هل نحنُ كالدجاج؟ نظر إليه الأستاذ باسمًا بينما كان باقي زملائه بالصف يضحكون بصوت مرتفع، أجابه: لسنا كذلك، هذا ليس الواقع يا عزيزي، هذه مجرد اعتقادات عن بدايات الخلق، هل سمعتم يومًا بهنود الماكيربتير؟ أومأ الطلاب برؤوسهم نفيًا،إنهم قبائل قديمة سكنت آسيا الوسطى، ويكاد الحديث عن وجودهم يكون معدومًا، وحتى تصل إلى نتائج تدل على وجودهم عليك البحث حثيثًا في مجلدات العالم القديم، تعتقد هذه القبائل أن الإله إذا حلم بتناول الطعام يمنح الخصب والطعام، وإذا حلم بالحياة يولد ويمنح الولادة.

أضاف مرقص ثانية دون إذن هذه المرّة إذًا حلم الله الأب بالحياة فأصبح لديه ابنه الروح القُدُس؟ لا أستطيع أنّ أجزم لك بذلك، لكن لا تحاول أن تربط كثيرًا بين الاعتقادات الوثنية وبين الكتب المقدسة هناك فجوة كبيرة بينهما، رفع طالب آخر يده فأذَن له الأستاذ بالحديث، إذًا لقد أتى طائر اللقلق بالأطفال الأوائل إلى منازلهم، هل كانت بطون أمهاتهم منتفخة؟ وكُنَّ يعتقدّن أن بداخل بطونهن أطفال لكن الرب فاجأهم وبعث الأطفال إليهم عن طريق هذا الطائر؟ أمّ أن

الأمهات الوثنيات لم تكن بطونهنّ منتفخة كأمي حين كانت تحمل أختي الصغيرة في بطنها؟ فوجئ الأستاذ بسؤاله فأجابه: هل هذا ما فهمته أنت من النص الذي قرأته عليكم! أجاب: أجل وأعتقد أن الطائر أمر أمي بالتهام أختي الصغيرة حتى تلدها من بطنها لأن الأديان تبدلت.. أدار الأستاذ وجهه نحو السبورة وهو يحاول أن يخفي استهتاره بعقول الأطفال المليئة بالخيال،عليّ أن أتصرف، قال الأستاذ في نفسه فرسم دائرة على اللوح ورسم أسهمًا تحيط بها تمشي باتجاه واحد مشيرة إلى الاستمرارية، ما أراد إيصاله الهنود إلينا من خلال فكرهم عن بداية الخليقة هو أن الطبيعة لا تنضب ودائمة الاستمرارية لذلك باعتقادهم أنها جديرة بالعبادة، وأنها من تمنح الآلهة هذه الأحلام فتصبح على شكل مهام، إنهم يظنون أن الطبيعة تلد الآلهة وبالتالي تصنع الآلهة البشرية، فيموت البشر ويقومون بدفنهم، فترجع البشرية إلى التربة ليصنع منها الآلهة بشرًا مجددًا بمساعدة المياه، قفزت "لوليت" من مقعدها قائلة إنها دورة المياه في الطبيعة،أنت تتحدث عن دورة المياه والبناء الضوئي، قال الأستاذ: أخيرًا شخص ذكي في هذا الفصل..

تعمّدَ أستاذ العلوم في كل مرة أن يربط لنا العلم بالأديان؛ ليرى مدى تصديق عقولنا لهذه الاعتقادات، كان دومًا يحاول أن يبرز لنا نقطة محددة من خلال مجموعة معينة من النقاط التي قد يطول شرحها حتى نصل أخيرًا إلى النقطة الأساسية، أحيانًا كنتُ أظنه شخصًا

مُلحدًا، وأحيانًا شديد الإيمان ورعًا، كان من حسن حظنا أن يقوم بالتدريس لنا شخص يعلم كل هذه الأمور عن الحياة والآخرة، اعتقدت لفترة أن الجامعات تبعده عن صفوفها مع أن مكانه هناك كان واضحًا، لربما لم يكن حاصلًا على شهادات بدرجات مرتفعة، قالت سارة، وما الأمر المهم بكل تلك الشهادات؟ إن الثقافة ملكة يمنحها الله عباده الذين يرضى عنهم مرة والذين يرغبون بتعذيب أنفسهم وقتلها بالشك مرة أخرى،"مهما تحاول الجامعات إيجاد تفاسير مبتعدة عن الأديان كانت ترتد مجددًا إليها، الكذبة الكبرى دائمًا هي السُّلطة"، قال مُرقص.

***

جاد – جميلة

روما – ديسمبر – 2014

في إحدى جامعات روما يعمل جاد بروفيسورًا على وشك التقاعد، غالبًا ما كان محبوبًا من قبل الطلبة العرب على الرغم من كونه يميل كثيرًا إلى التعلق بكل ما هو أوروبي الطراز، كان ينسى بعض الطلبة من المدينة الكاثوليكية حقيقة قومية جاد عدا جميلة الطفلة ذات الأصول الفلسطينية البريطانية، كانت دائمة الاعتداد بقوميتها وجنسيتها بشكل مفرط بنظر البقية،أحيانًا كانت تلجا إلى البروفيسور المختص في علوم السياسة لتدخل معه مناظرات ومناورات حول وطنها العربي السليب بالمجمل، لم يغلق مكتبه في وجهها منذ عامين مُطلقًا..

-- أنت لا تحتاج حتى تثبت للعالم أنك رجل شرقي متحضر للكثير!

فقط القليل من المواقف العقلانية، رشة مبادئ، أو حتى قد تكتفي بفكرة واحدة تحارب من أجلها، أو دعك من فكرة الحرب، الغرب المتعجرف يقود حروبًا ضارية، ويتحدث عن الحضارة في ظل السلام، معضلات تنتهي إلى مسلمات.. لكن من السذاجة أيضًا ربط الغرب بالتحضر والعقلانية والديمقراطية المزعومة.

اسمعني جيدًا: أن تتبع حزبًا أو أن تنشئ واحدًا فقط من منطلق أن هناك الكثيرين من الذين يشابهون أفكارك لكنك باعتقاد نفسك وباعتقادهم الأجدر بالقيادة وهم فقط مجرد منقادين لأصل الفكرة التي تتبناها، بالنهاية سيقودك هذا إلى تمرد أحدهم عليك، انشقاقات اختلافات وشرارة قد تفتك بمصيرك وموت الفكرة الأم تحت نازع السيطرة، هذه غريزة لن تمحوها مهما تتجنب بحنكة كل الاختبارات.

– أنت تميلين للمثالية بأفكارك! قال جاد.

– المثالية غير موجودة بين البشر يا صديقي، وحده الرب يملكها.

– إذا أنت من المستسلمين!

"بل واقعية"، قالت جميلة ذلك وهي تنظر إلى جاد،كم مرة حاولتَ الوصول إلى المثالية؟ سأجيبك أنا: ولا مرة "الجميع يعتقد أنه مثالي"؛ صدقني، جاد حين تحاول الوصول إليها كما فعلت أنا عليك أن ترتطم بالواقع وتعود مُثْقلًا بأفكار جديدة أفكار أكثر قابلية

للتداول، النقص يفتك بالبشرية تحت مزاعم المثالية، أخ،كم هذا العالم متناقض فنصفه متصلف والنصف الآخر يحاول أن يتصلف.

"ربما"،قال جاد وشكله يوحي بمحاولات جادة لاستيعاب ما تقوله طالبته.

أضافت جميلة، أتعلم؟ قرأتُ الكثير عن الصوفية، وشاهدتُ الكثير من الدراويش.. وأعلمُ أنه عندما تكون صوفيًا أو بالأحرى عاشقًا لله لا يجعلك هذا صاحب قضية، أنا لا أهاجم الصوفية، لكن بعد هذا الابتداع بات الغرض من الصوفية وجود المريدين حول المتصوف، لا أدري مَن الذي شوه العلاقة بين الرب والإنسان، لكنني أعلم جيدًا أن النزوات أحالته إلى الواقع البشري المظلم مرة أخرى، أعني ألم يقل الله: (ونحنُ أقربُ إليه من حبلِ الوريد)، علّك تسأل الآن ما شأن الصوفية بحوارنا.. الجواب بسيط جدًّا يا جاد ما حدث من ابتداع بالصوفية هو ما يحدث مع الثورات في الوطن العربي الآن.. تنطلق شعلة الثورة من شخص مطالب بالديمقراطية أو من إنسان يبحث عن حقوقه لعلاقته التي يظن بأنها وثيقة بوطنه ثم ينتشي أحدهم ليصبح أكثر طمعًا، تروقه الأضواء واللقاءات الصحفية، كما بات يروق للدراويش المريدون!لن أتعمق بالتفاصيل لكنني من هذا الحوار أستنبط أربعًا يا صديقي.

- أنا أسمعك.

– أنا أعيش في مجتمع يحفظ كثيرًا، يتلقن كثيرًا، ويعجز أن يكون مبدعًا، أنا أعيش في مجتمع المتكافئات عنده متضادات،يعني أنا وأنت نتشابه في الكثير من الأفكار ويجمعنا سقف مبادئ يكاد يكون واحدًا، لكن عند انطلاق شرارة فكرة مختلفة من أحدنا فإن جُلّ ما نفعله نستل سيوف البُغض، وتقودنا هلوساتنا إلى حربٍ ضروس لا لن تفيد أيًّا منا، فقط ستحبط أفكارنا.

– والثالث؟

– الزعماء الوهميون عندهم مبادئ مؤقتة.

عدّل جاد من جلسته على كرسي مكتبه المصنوع من خشب الأبنوس، أما آخر ما وصلت إليه وفي خضم الحديث الذي يبدو جادًّا ضحكت ثم أضافت: ليش ما نكون زي الشعب الموزمبيقي بس يثور على حكومته بيقاطع المنتجات المحلية؟

– ليش أنتِ ضد الثورات؟

– لا.ضد المصالح الشخصية التي شوهت نقاء الثورات.. هذه مهالك!

– لا، مستني أفكارك، لكنها ومع كل هذا لم تغير مبادئي، أتعلمين ماذا؟

انتبهت إليه فقال:

- كنت أعتقد أن النساء يتحلّين بقدرٍ كبيرٍ من الغباء؛ أعني ألا تسيئي فهمي لكن..

- انسَ الأمر "جاد" أعلم ما يدور ببالك، لكن، دعوة صريحة مني لا تستصغر عقول النساء وقد عظّمَ الله كيدهنَّ.

- أنتِ ذكية وهذا الأمر يوحي بالتطرف حيال جنسنا، ما رأيك بوجهة نظري!

- احتفظ بها لنفسك، ولا تستخدمها بحوارات راقية؛ فنحن في القرن الواحد والعشرين وأنت تتعالى وتتحدث بعنصرية وكأن ما ينقص البشرية صراع جديد بفعل العنصرية،معنى حديثك هذا يا جاد أن نحدث فجوة أخرى، فجوة جديدة بين الإناث والذكور تحت منطلق نزاع أو معركة، ألا نكتفي بالصراعات الدينية والحضارية والطائفية وصراعات الحق والباطل، أنت مضحك للغاية.

ينظر إليها متشوقًا لما تقول، يشير إليها بيده أن تابعي؛

- أتعلم؟ تدور الآن ببالي فكرة مضحكة تشبهك كثيرًا.

- مضحكة وتشبهني؟! جميل أسمعيني إياها!

تنظر هي بشغف إلى السماء وتتابع، لو نشب صراع ما بين قطبي الحياة (الإناث والذكور) ستنتهي البشرية أو ربما لا؛ ففي كل صراع هناك من يحاول أن يتمرد أن يلجمه، أعني سيتمرد البعض وسيتزوجون وسينجبون الأطفال ولو سرًّا حفاظًا على غريزة البقاء.

– أتقصدين أن هناك من سيسيطر بالنهاية على الموقف. المعارضة مثلًا!

– ما الذي يدريك، أحيانًا مَنْ سيسيطر الحكومات، القصة قصة مبادئ يا غالي.. (بسخرية).

أمسكت بأسطوانة قديمة مرصوصة برزانة على رفٍّ مزخرف يعود للعصور الوسطى أو أنه تقليد بشكل متقن لعصر الثورة الصناعية، من ثم أدارت إصبعها عليها لتزيل الغبار وتنظر إليه:

– لو جربت أن تبدل أسطوانتك القديمة هذه بألحان الثلاثي جبران لتداركت الكثير مما فاتك في عمري.

– الثلاثي جبران؟

– إخوة إنهم إخوة، يعزفون العود (الجيتار) أو ما شابَهَهُ، يحملون الجنسية الفلسطينية، عدنان سمير.. الثالث اسمه على طرف لساني..

تحاول أن تتذكر فيقاطعها:

– جميلة أنت جد فلسطينية!

– أتُمانِعُ؟

عندما لَحّنَ الثلاثة (شجّن) لم يخالجني أرذل من هكذا شعور، إنه العجز اللامتناهي أن تكون صاحب حق ولا توجد محكمة في الدنيا

تعطيك حقًّا ولا قاض في الأرض يُنصِفك، ننشطر نصفين عند الحديث عن الوطن، تجتاحنا الكثير من الأمنيات.

تمسح دمعها المتسربل ثم تنتفض:

- أنظر إليّ وإلى لسان حالي كلمة (اجتياح) باتت من المصطلحات التعبيرية لديّ.

التفتت إلى جاد لتجده منغمسًا في أمرين يسمعها ويبحث عبر (YouTube) عن موسيقى الثلاثي جبران عله يسعف شوقها..

- ربما أحتاج إلى سماع، رُبَمـــا ستجدها، لكِ ما تريدين.

- ربما.. ربما ليست أجمل من ألحان موزارت لكنها جيدة.. جميلة، مين سماكِ جميلة؟

- جاد.. عنجد اسمك جاد؟

منحها نظرة إلحاح فأجابته:

- جميلة بو حيرد.. عارفها؟

- بعرفها؟ ما تحكيلي إنك على اسمها، مستحيل يكون الفكر الثوري متوارث عندكم؛ ليش ما تحكي أن لكل امرئ من اسمه نصيبًا.. أو بندقية.. غريب يا جاد! أستاذ في العلوم السياسية والاقتصادية وما بتعرف إنه الثورة مش وراثة، الثورة فكر.. حاول تفهم دوافع جيفارا!!

– أفهم أنها إهانة؟!

وضعت كوب القهوة الذي بدأ يبرد:

– لا، اعتبرها انتشالًا لفكرك العربي من ملذات الفكر الغربي.

– بتقدسي ثورة جيفارا وبتعارضي الثورات العربية.. غريبة أنت!

– مش لما تكون الثورات العربية اللي بيقودها شخص عنده مبادئ وسعى يحققها.. أستأذن الآن المحاضرة على وشك البدء، أنت تعرف مستر جوناثان جيدًا قد يحرمني من الدخول للقاعة بقية التيرم..

انسحبت نحو باب المكتب، أمسكت المقبض أوشكت أن تديره، ناداها هذا الصوت الرزين من خلف المكتب:

– جميلة، بتعرفي ليش طردتك من أول محاضرة!

أدارت وجهها فحسب وابتسامة لا تفسير لها تعلو شدقيها:

– مش حابة أحرج نفسي وأفوت في دهاليز عقلك.

فتحت الباب حتى أضاف جاد ثانيةً:

– بلوزتك.. مرسوم عليها حنظلة، بستغرب من جرأتك! دولة مليئة باليهود ومناهضي النازية والمتعاطفين مع السامية وبلوزة حنظلة!

نظرت إليه نظرة عميقة جدًا..صمتت قليلًا، لتتحدث بنبرة عالية:

– أستاذ جاد هذه ليست جرأة،أنا التي يجب أن تستغرب.. وسط جميع هذه الكتب الأدبية وكتب الشعر لجان جاك روسو وشكسبير

وماركيز.. لن تجد كتابًا واحدًا لغسان كنفاني.. ديوان شعر لدرويش أو سميح القاسم أو حتى لعنترة..أنت لم تتعرَّ من كونك فلسطينيًّا فقط بل تعريت من عروبتك في أبسط الأشياء، و تستغرب من ارتدائي بلوزة حنظلة (بتهكم)!.. قداسة الماضي والوطنية لا يجب أن تُلغى في الغربة حتى لو اتخذتَ غربتك وطنًا.. عن إذنك..

أغلقت الباب بعفوية، تركته خلفها يتأمل، طالع مستقبله في هذا البلد الغريب، وفي تمتمات نفسه طفلة لكن بفكر جبار بدأ يواسي نفسه: "أعتقد أنها ستتغير قريبًا، ستنسى يافا وتنغمس في دراسة الأصول المالية في الشركات الضخمة هنا.. أو ربما لا، سأكون مخطئًا إن حكمت عليها بهذا؛ هي – على الأقل – أتت جميلة وبقيت جميلة على خلافي أنا، حولت اسمي من نور الدين إلى جاد خوفًا من تعجرف مصلحة الضرائب، نزعت الرموز الوطنية وعزمت ألا ترافقني في غربتي حتى أعتاش مرتاح البال حتى لا أنهي دوامي الجامعي لأجد عبارات بغيضة تلتوي على نافذة سيارتي من الطلبة اليهود والغربيين.

لقد أنسيتهم تمامًا أنني عربي، تنكرت من هذه العروبة لأجل راتب شهري وميزات وتمشية ضرائبي؛ بس جميلة غير عني، أنا حين أهرب من الأرقام وحسابات الأموال لأسعف نفسي بقصيدة أو مسرحية لا يخطر ببالي قيس وضراوة عشقه ل ليلى، جل ما يداعب تفكيري ما فعله روميو من أجل جولييت، وهي قصة خيالية على أية

حال، أما جميلة تدفئ قلبها برسائل كنفاني وغادة السمان، هي واقعية جدًّا لا تحتاج إلى قصص واهية في العشق، ولا تحتاج إلى قبلة أو عناق ما من صديق عابر يواسيها، ينتشلها من قسوة برد الغربة، ينتشلها من عروبتها.. تتمسك بكل شيء حتى أبسط الأشياء، كم هي على حق حتى بتمسكها بالرموز الدينية! وكم أنا ساذج حين أخلع هذه المبادئ! كيف يستطيع المرء أن يقضي عمرًا كاملًا عاريًا؟! عاريًا من كل شيء، من الداخل لا شي يستر رأسه إلا شيب الشعر وملابس من تصاميم شركات عالمية عشان الهيبة".

***

جمال – سلمى

يناير – القدس – 2013

مشتاق..

أرسلها على عَجَلٍ لسلمى التي تقطن الطرف الآخر من الوطن، لم يعلم عنها شيئًا منذ مدة تصلها رسائله، يعلم جيدًا بأنها تقرؤها، لكنه يجهل تمامًا لماذا توقفت عن الرد عليه.. هذه المرة وعلى الرغم من ضعف الأمل لديه بأنها ستجيب ضغط على أيقونة إرسال متجاهلًا تجاهلها..

بعد ساعتين من الانتظار ظهرت على شاشة حاسوبه المركون في زاوية الغرفة القديمة – والمكونة من سرير خشبي، وساعة حائط، وستائر مخملية توحي بقليل من الرزانة –رسالة بريد إلكتروني جديدة، لم يكن من الغريب أن يفتح رسالتها بسرعة وبشوق، فهو معتاد على

الجلوس ساعات طويلة دون أن يفعل شيئًا آخر أمام شاشة أنبوب الكاثود كبيرة الحجم تلك..

عزيزي جمال:

ما بيني وبينك مسافة لا يعلم بها إلا الله! ليست مسافة أمتار أو كيلومترات، أنت تعلم جيدًا أن هذه المسافة لم تفتعلها الحدود فقط، بل افتعلتها الألوان، هويتك الزرقاء تعطيك لقب مواطن مقدسي وتحرمك من لقبك الفلسطيني، أجل، أعلم يا عزيزي أن القدس عاصمة لدولتنا لكنهم يقطعوننا عنها ويقطعونكم عنها ويقطعوننا بعضنا عن بعض، ههه إنه هراء!

أخبرني أبي يومًا أن حاملي الهوية الزرقاء أو بالأحرى سكان القدس لا يحق لهم الزواج بحملة الهوية الخضراء، وحين سألته عن السبب استنكر وقال: هذا ما يفعله الاحتلال بنا، فرقنا في الدول المجاورة؛ ثم منحنا لقب لاجئي الخارج ولاجئي الداخل، لم يكتفِ بهذا، بل قام بمنحنا ألقابًا أخرى، أهل غزة، أهل الضفة، المقدسيين، وأخيرًا أهل ال 48 ودول اللي بيسكنوا داخل الخط الأخضر، آه وكمان عمل وطننا خطوط، اللي برا ممنوع يرجعوا لفلسطين واللي جوا ممنوع يرجعوا لمدهم اللي جوا الخط الأخضر.

كانت أسئلتي التي أوجهها إلى والدي كثيرة، لكنه اختزل جميع الإجابات بمصطلح واحد ألا هو مصطلح (الأبرتهايد) أو التمييز

العنصري؛ إن تزوجنا سحبوا منك هويتك المقدسية وسحبوا مني الهوية التي يذكر بها أني ولدت في غزة.

غزة! إنها المدينة التي تحمل أكبر عبء ممكن من الهموم، ربما لا يحق لي قول هذا.. القدس أيضًا تُخذل كل ليلة، سُحقًا للعروبة!

ربما لو ظلت خطاباتنا تذكر القدس وهمومها وغزة وهمومها.. سننسى أننا لوهلة تجاهلنا ما يعانيه الوطن وأحبَّ كلٌّ منَّا الآخر، لا أمل فيما يحدث،إنها المسافة قد قتلت كل شيء.إضافة أخيرة لرسالتي، لم نكتفِ بما فعله الاحتلال بنا،بل تنازعت أحزابنا المقاومة على الحكم أيضًا، و تفرقنا مجددًا..

"برأيك يا صديقي: ما الذي يمكن أن يجمع شتات بيننا؟"

جاد – جميلة

روما – 2015

كان نهارًا طويلًا بالنسبة لجميلة ومتعبًا، لقد أُرهِقَ الجميع من الوضع الراهن في الدول العربية، حاولت أن تفكر جميلة بشيء يخفف من حدة التوتر الغارقة فيه، فتوجهت إلى مكتب بروفيسور جاد لتناقش وتحلل معه الوضع الراهن بصفته بروفيسورًا لن تأخذه الحمية تجاه مواقفها، طلبت منه موعدًا يكون متفرغًا فيه، فأجابها على الفور بأنه متفرغ هذا النهار لمدة ساعتين من الآن، توجهت إلى مكتبه وبعد أن قاما باستعراض الأحداث السابقة والحالية والنتائج المترتبة عن نشوء مثل تنظيمات كهذه، استذكرت عصور الظلام التي عاشت فيها الكنيسة:

– في المحاضرة التي يلقيها – جون هص – الكثير من الطلبة المتشددين للمسيحية، وقف جون فارعًا طوله ليتحدث بثقة:

– (إن القساوسة يجب أن يكونوا قادة روحانيين، وليس حكامًا في الأرض، فالإنسان هو الحاكم الوحيد لنفسه من بعد الرب).

بدأت علامات التجهُّم تظهر على وجوه المتشددين حتى خرج أحدهم من المحاضرة فتبعه آخرون، أحس جون هص بالارتياب.. لكن يقينًا منه و من مكانته الرئاسية لجامعة تشارلز الموجودة في براغ لم يُبدِ بالًا للأمر..

تشاور الطلبة المتشددون مع البابا وما لبثت المدينة إلا أن اشتعلت بنبأ إخراج جون من المسيحية، حيث اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية مُرتدًّا، وسرعان ما أصدروا حكمًا عليه بحرقه مصلوبًا كما ورد في شريعة القساوسة جزاءً للمرتدين، تهافتت الجماهير وحيَّت الكنيسة لتطبيقها شريعة الله المزعومة على الجميع..

"كل الناس سواسية المتعلم وغير متعلم، الإيمان،الإيمان يا سادة هو الذي يحكم" ردد هذه العبارات ثم دار أمر الحرق والجمهور يهتف عاشت الكنيسة عاش البابا.

– هذا المجتمع الغربي يا جاد الذي حرق جون عام **1415** هو نفسه المجتمع الذي تحكمه العلمانية، ألا ترى معي أنت أن بالأمر خدعة! نفس الطريقة التي كان يخدع بها القساوسة البشر قديمًا تستخدم الآن دين الإسلام تحت شعار تطبيق شريعة الله في الأرض.

جون هص صُلب محروقًا؛ لأنه عارض الكنيسة تحت حمد وثناء من الجمهور لفعل البابا، حتى بعد موته انطلقت العلمانية لتحكم عالم

الإيمان المزيف، هكذا نحن يا جاد بعد أن يدعوا تطبيق شرع الله في الأرض سنعود إلى مبدأ فصل الدين عن الدولة، وهذا ادعاء باطل، لم تتوقف الأديان أو حتى ما يختاره البشر من الأديان عن أخذ السلطة على كاهلها، لم تختفِ يومًا الوثنية عن أسطح الكنائس، الفاتيكان تعجّ بالرموز التي تتحدث عن آلهة الأم الطبيعة، بالمناسبة، التنظيمات الحالية أيضًا تفعل،بعد قضية حرق الطيار على يدِ التنظيمات الإرهابية خرج أحدهم و حرّف إحدى الآيات القرآنية، إنه تمامًا ما قام بفعله قسطنطين، ألم تلتفت أنت لهذا بروفسور جاد؟! فتحت حاسوبها النقّال بسرعة وأخرجت دفتر الملاحظات المليء بالرسومات الأولية، قلبت دفترها بحثًا عن ورقة فارغة و رسمت قدحًا و سيف، ما الذي تفعلينه جميلة؟ سألها جاد فلم تجبه بعد دقائق قالت، قسطنطين كان يعبد آلهة الطبيعة ما يعني أنه كان وثنيًا، ولأنه وقع في أزمة سياسية ناتجة عن ظهور المسيح ومريم أعلن أن مملكته مملكة تتبع الدين المسيحي، كيف لهذا المحارب أن يقبل بحكم الآلهة الأنثى بعد الآن؟! كانت هذه فرصته المثالية للسيطرة على البلاد باسم الدين المسيحي الذي سرعان ما بثّ في صفوف الرعايا أنه دين يعظّم شأن الرجل ويعطيه الحق في الحكم و السلطة، وبعد أن قام بإخفاء أسفار الإنجيل الخمسة الأصلية والتي كُتبت أساسًا على يد البشر نقلًا عن حكمة المسيح التي منحه الله إياها غير مجبورٍ على كتابتها للمؤمنين على أنها الدين المسيحي كتب أسفارًا جديدة تتكون من أحد عشر سفرًا مدججة بالرموز الوثنية الذكورية، ومنع تداول الأسفار الخمسة الأولى، والتي تخبر بها المسيحية الأصلية عن أن من كان يساعد المسيح

بالحكم والسلطة هي زوجته مريم المجدلية، لم تذكر الأسفار الأصلية كلمة زوجة بل فسر العلماء كلمة رفيقة على أنها المعنى المرادف للزواج في تلك الفترة، ومع رفض العديد من الرجال هذه الفكرة التي تدور أصلًا حول أن المسيح خرج للمجدلية وهي تبكي على قبره وأمرها بتشييد أول كنيسة، لكن الكنيسة الكاثوليكية التي أقرت أن المسيح كان ابن الرب لم تتحمل أن يتم تكذيبها فأشاعت خبرًا يقول إن المجدلية كانت مومسًا وأن المسيح لم يتزوج، هذا وإن الآلهة لا تتزوج ولا تنجب الأبناء؛ وقد ظل سر سلالة المسيح والمجدلية محفوظًا كما يدعي البعض لدى الأخوية التي تعبد بالمحصلة الآلهة الأنثى، كما أضاف قسطنطين والكهنة أمور بناء أول كنيسة مشيرًا إلى أنطونيوس النبي.

– أنا لم أفهم قصدك جميلة!

– دعني أتابع.

قالت جميلة.

– وستفهم ما أعنيه. قال المتحدث هنا:

– "إنا أرسلناك بالسيف رحمة للعالمين"، لقد ظلت الكنيسة على عهدها الذي يأمر بعدم إظهار أية وثائق تاريخية تثبت زواج المسيح بالمجدلية ذات الأصول الملكية حتى أنها اخترعت فكرة القدح الذي يظن البعض بعدم صحته، القدح كما تقول الكنيسة هو عبارة عن الكأس التي شرب بها المسيح وأنبياؤه الاثنا عشر ليلة الوليمة السماوية وهو القدح ذاته الذي جمع به دم المسيح حين صُلب، لكن

الماسونية لا تعترف بهذا، إنهم يعتقدون بأن القدح يعني المجدلية أي الرحم الذي تحمل به سلالة المسيح، بروز كلمة السيف هنا ما هو إلا رمز يحمل تفسيرين.

- ما هما؟

قال جاد.

- إن السيف بالشكل المبدئي يرمز إلى الذكر وكما أسلفت إن الكنيسة يحكمها الذكور، لربما كان ما يحاول إخبارنا به المتحدث هو شفرة تقول بشكل صريح إن حكم الكنيسة سيسيطر على الأراضي التي بها أقلية دينية مسيحية، ومن ثم تعود عصور الظلام، أو...

توقفت جميلة عن الحديث وهي تقول بصوت مرتفع:

- أبْعِدْ عني هذه الوساوس يا الله..

- ما الأمر؟

قال جاد

- لربما أراد الماسونيون أن يبدأ الصراع بين الكنيسة والمسجد حتى تنهار هذه الأديان وتطفو على السطح عبادة الآلهة الأنثى مجددًا، وهذا هو التفسير المنطقي بعد ذبح الكاثوليك،كما تعلم جاد، إن الإسلام يبرز آيات كثيرة تحثُّ المسلمين على التعايش بسلام مع أهل الكتاب،إن من السذاجة أن تأخذ الأقليات ما يحدث على محمل الجد! ليس هؤلاء إلا مدّعين.

- جميلة هذه الأفكار لا داعي لأن يتم مناقشتها أمام جموع الطلبة بالخارج، تعلمين جيدًا أن المسيحية بُنيت على أنقاض اليهودية، ومن اعتنق المسيحية إما ملحد أو يهودي.

- لكن بروفيسور جاد الماسونية أيضًا بُنيت على ذات الأنقاض معًا إضافة إلى الوثنية، إذًا ما الحل برأيك بروفيسور جاد؟

- إنها أسرار، جميلة، أسرار عميقة منذ الأزل، دعيها في الجيوب ولا تنبشي أو تبحثي وراءها، إن البشر جل همهم تفسير التفسيرات من عدة مناظير ليضيع المعنى الأصلي الذي يريد إيصاله الباحث أو المفكر، لطالما دُفنت أفكار كثيرة تشابه أفكارك حين خرجت للعلن، وما كان خروجها للعلن سوى مضيعة للوقت.

- جاد لقد جلب لنا البعض مثلًا كان يُتداول بين القبائل الآسيوية دومًا: "العشب الجاف سيحرق العشب الرطب"، إنها محاولات من القدماء تحثنا على عدم البقاء بمثل هذا النوع من التفكير الجامد، تعلم أنت جيدًا أنّ العقل البشري بحاجة للبحث والتطور، إن ظلّت بعض المناطق في الثقافة جافة ستحرق باقي المناطق النهمة الرطبة، أنا لن أخرج ببساطة لأخبر الجميع عن أفكار أولية، كل ما أطلبه هو فرصة للبحث عن الحقيقة، جاد ألا تعتقد أن تحرير فلسطين قائم على مثل هذه الأبحاث؟! الكل يتحدث عن المدينة المقدسة، إنها تنهار الآن، حان الوقت كي يدفع البعض ثمن ما يحدث للقدس، لا يجب أن نرتبط

بها وطنيًا، الكل – وأعني الكل دون انتقاص من يؤمن بأي ديانة من الديانات– يجب أن يتحرك لأجل هذا الإرث العريق،إن وجود حراس الهيكل التسعة كذبة هم الذين افتعلوا فكرة هيكل سليمان والأخوية، أنا لا أؤمن بهذا الحديث أبدًا.

– جميلة، تعلمين جيدًا أن الديمقراطية تكفل للجميع اختيار الدين والمعتقد الذي يظن الفرد بأنه يمثله، لا نستطيع فرض الدين أو طريقة العبادة.. آسف لا أستطيع استكمال هذا الحوار، أمسك نظارته وبدا مرتابًا من أي زيادة قد يضيفها؛ لكن فنجان الشاي الإنجليزي كان يخفف من حدة توتره أمام طالبته، وهكذا حاول أن يبرز لها عدم اهتمامه بما يحدث للأراضي العربية بشكلٍ عام وللأرض المقدسة بشكلٍ خاص.

– أتعلم جاد؟ إن المتخاذلين مع القضية أسوأ من كل انتداب وكل احتلال مرّ على أرضنا..ألا تشعر بالعار؟ هذه المرة خرجت جميلة دون أن تغلق الباب حتى يستطيع أن يشعر البروفيسور العربي العظيم بالموجات التي تتردد حول كف جميلة الذي ضرب طاولته بعنف، لم ترغب أن تشتت انتباهه عن نزعة الغضب العفوية التي تملّكتها، وتركت أثرها، هي ذات الأسئلة التي تتكرر منذ عامين من بدء جميلة دراستها الجامعية في روما؛ ومع مرور كل هذه الأيام ما زالت أسئلة جميلة تؤلم قلب جاد، يعجز عن إجابتها غالبًا، الساعة

تصدر صوتًا خانقًا، تتحول ألوان الغرفة إلى العتمة، يساوره الشك في قدراته في الشهادات المرصوصة على الحائط وتفقده ثقته بالمكتبات التي جاها وبكتبه المرتبة على الأرفف، بأبحاثه العلمية التي سهر عليها كثيرًا ليعرضها على الوكالات المختلفة، تخنقه كثيرًا هذه الأسئلة؛ من دائرة النقاش تسحبه كالطفل لتسقطه في زاوية ضيقة جدًّا.

يبدو أن جميلة أثارت منذ الوهلة الأولى في نفسه الفضول نحو الآداب العربية،فما لبث إلا أن خطرت بباله فكرة البحث عن مكتبة عربية في مقاطعته أتت هذه الطفلة من أرض البرتقال الحزين إلى المدن الغارقة بالأضواء، ولا تزال تحلم بالعودة.

***

نرسيس

روما – 2015

اندمجت موسيقى الكلارينيت بموسيقى العود فأحدثت إعصارًا عصف في الوجود حتى تعالت أصوات الجماهير مزيدًا من الموسيقى مزيدًا من الخمر.

أتعجب! أعجب الجميعَ اندماجُ موسيقى الشرق مُمثلةً بالعود بموسيقى مقطوعات غربية يحييها الكلارينيت، هل توحد الموسيقى الشعوب؟! هل تفعل ما عجز الساسة عن فعله؟! والخمر! هل تحتاج الشعوب حتى تتحد أن تكون سكيرة؟ اللهو يحكم هذه القاعة الكبرى، ياقات مدببة، بزات لامعة، ماركات، هذا حديث النساء، المرأة يجب أن تختلف في هذا العالم عن الأخرى التي توازيها بالمستوى الاجتماعي، من المؤكد أن الأشخاص الموجودين هنا يحملون من الغيرة الكثير لبعضهم البعض، الأحضان الكاذبة، العشاق الكاذبون

الذين يتبادلون القبل على الشرفات أو في الحديقة الأمامية، العلاقات التي تجري خلف أبواب الغرف في هذا القصر، هناك علاقة حميمة لفتاة أوصاها والدها أن توقع ابن المحافظ في شراك حبها، صفقات السلاح التي تُجرى وراء الباب الآخر،صفقات الممنوعات في الردهة، لقد فهمت كل هذا مَرَّ على رأسي كثيرٌ من الحفلات المتشابهة، لكنني عجزتُ أن أفهم لماذا تُحيى مثل هذه الحفلات تحت عنوان التبرع لمرضى السرطان أو الفقراء في الدول النامية أو حتى من أجل بناء مأوى للأيتام.

في مرة من المرات كانت الكثير من مدن العالم تعاني فقرًا مدقعًا كما الآن، وحين بدأنا التجهيزات اللازمة لحفلة من هذا النوع فُجعنا بالعنوان، والهدف الأساسي لإقامتها، لقد كان هدفها بناء مأوى مُرفَّهٍ للكلاب والقطط الضالة من باب الإنسانية ؛ليتنا كلابًا ضالة تسترعي إنسانية هؤلاء، علّ بعضًا من ريع التبرعات يُسعف جوع الملتحفين السماء في يوم ماطر عله يوقف آلام المدججين بالفقر بالمرض، سُنة الحياة في هذا المجتمع الرأسمالي أن يتزوج النادل نادلة ليتمكنا أخيرا من إنجاب نادلٍ آخر يخدم أبناء ابنة محافظ المقاطعة الغربية التي تزوجت بابن محافظ المقاطعة الجنوبية، تكاد تكون الرأسمالية نظامًا استبداديًا موروثًا.

لو علم أحدهم أنني ماركسي وتوجهي نحو النظام الاشتراكي لوضعوا في فمي تفاحة و أوسطوني طاولة البوفيه بدلًا من هذا الخنزير؛

من ذا الذي يكون فقيرًا ولا يدعم نظامًا يحتوي فقره ويساويه بالآخرين.

الفتاة نرسيس في المطبخ مع باقي الخادمات، إنه الطالع الذي منحته تلك الغجرية "أوركيدا" والدها قبيل زواجها بـــ"ألفي" قبل واحد وعشرين عامًا.

"نرسيس الفتى الجميل".

كان نرسيس يذهب كل يوم ليتأمل جمال وجهه في انعكاس مياه بحيرة تقع على أطراف قريته، كان مفتونًا بصورته إلى درجة أنه سقط ذات يومٍ في البحيرة ومات غرقًا، وفي المكان الذي سقط فيه نبتت زهرة سميت بـــ"نرسيس" – نرجس–؛ وهذا هو الاسم الذي سنطلقه على ابنتنا نرسيس، لن أقلق من نبوءة سوء الحظ التي منحتك إياها الغجرية "أوركيدا"، ليست سوى ترهات تتفوه بها جميع الغجريات في المدينة حتى يحصلن على قروشٍ وكوب قهوة صباحية، ستكون نرسيس الجميلة حسنة الوجه والحظ.

قبّلَ جبين ابنته الوليدة، منح أمها إياها حتى تهتم بإرضاعها لحين أخذها للأب "أوركاديوس" حتى يهتم بترتيبات تعميدها.

انسحب مع غليونه إلى الشرفة الأمامية من المنزل ملأه بالتبغ وأخذ يدخن، لاحت أمامه من الأفق البعيد عربة يجرها حصانان بلون

أسود أدهمي، أدرك أنه المحافظ والد زوجته، لم يأتِ بسيارته، بل استقل العربة نظرًا لطبيعة المكان الذي تقطن فيه العائلة.

أخذ ينادي بصوت مرتفع على زوجته، مارثا.."مارثا إنه المحافظ"، حين اقتربت العربة ودخلت المزرعة ركض نحوها مُرحِّبًا بالرجل الأول في المقاطعة.

تحلق المحافظ "أرمان" والوالدة "أور سال" بابنتهما منحاها البركة ونرسيس الجميلة، إنها رائعة الجمال كـ"مارثا الأولى" قالت الجدة، تحمل ذات لون العينين وذات تقوس الشفتين، كم هي فاتنة!

كان من الغريب وضوح ملامح الوليدة في اليوم الثاني الذي أبصرت به العالم، نرسيس تشبه – أورديا ديات – ربّات الغابة اللواتي نسمع عن جمالهن في الحكايات أو بالأحرى تشبه الحوريات.

***

جورج – جمال

بيروت – لبنان 2013

جمال وجورج صديقان عبر مواقع التواصل الاجتماعي منذ ما يُقارب أربعة أعوام. لم يتقابلا واقعيًا بشكل قطعي؛ وكصديقين يعد جورج نبع الحكمة الخاص بجمال خصوصًا في الأمور الرومانسية أرسل جمال رسالة بريد الكتروني تحتوي على "جورج ما هو الحب"؟

الروح المرحة التي يمتلكها جورج تعد أحيانًا مقنعة، خاصة في رده على رسائل العشاق..

"الحب يا صاحبي.. مم شوف تقلك، جربت تكتب نص أدبي اسمه الحب؟ لو جربت رح تكتب كتير أشياء عن الأحضان عن الرسايل إللي كنا نرميها بالميه زمان، عن بنت واقفة ورا الستارة منتظره يطل رفيق أخوها تعمل قهوة بكل طاقتها بكل حيويتها، عن أول وردة

أول نظرة أول لمسة إيد، عن أحلام مراهقة مليانة سعادة وأطفال وسهرات بالمسا، عن ابن الجيران أول دمعة مثل الجمرة، أول سيجارة بيدخنها الشملول إذا أتأخرت بالرد على اتصالاته، رح يخطر ببالك كمان الوقفة تحت شباك الحلوة والطريق من المدرسة أو الشغل أو الجامعة..الأسامي الكتير المحفورين ع كل شجرة بمدينتكن عن وعن وعن..

بس رح اختصر لحضرتك كل هالكلام، الحب إنك تشوف مدامتك حلوة بعد شي تلاتين سنة من أول فنجان قهوة شربته في بيت أهلها".

"الرسالة مضحكة للغاية لكنها مقنعة في حالتي". قالها جمال دون أن يحاول هذه المرة أن يراسل سلمى مرة أخرى.

جمال يعرف سلمى منذ حوالي العامين يتبادلان الحب الإلكتروني كما يجمعهما سقف واحد تقسمه الحدود المحلية بأيدٍ محتلة.. جدار، حواجز، معبر بين غزة والضفة،جنود، تفتيش، تصاريح، جمال وسلمى هل سيستسلمان أخيرًا للحدود؟

***

سلمى

غزة – 2013 :

دخلت أم سلمى إلى غرفة سلمى وهي تحمل لها أنباءً سارة للبعض ومؤلمة للبعض الآخر، لقد استجمعت هذه الأم كل قواها حتى تفاتح ابنتها ذات الحيلة الضيقة بهذا الموضوع، الآن تجلس سلمى على السرير تضم فخذيها إلى صدرها وتعانق الركبتين مع شرود يبدو طويلًا للوهلة الأولى، جلست الوالدة على حافة السرير بالقرب من سلمى ثم بدأت تتحسس شعر "سلمى"..

– اليوم سيأتي زوج عمتك أم عمار حتى يطلب يدك لابنه عمار، سلمى صار عمرك عشرين عامًا لن تجدي شابًا يخاف الله ويحرص عليك أكثر من عمار، أيضًا هو شاب متعلم حاصل على درجة البكالوريوس في الهندسة المعمارية.. عليك أن تعلمي شيئًا واحدًا أنا لا أغصبك أو أقنعك أنا فقط أطلب منك التفكير جيدًا قبل أن تتخذي

أي خطوة قد تندمين عليها لاحقًا؛ وقبل كل هذه الأحاديث تضرعي إلى الله بصلاة استخارة..

لم ترغب الوالدة أن تجريَ حوارًا مع ابنتها فقط أرادت أن تُعْلمها بما يجري حتى تتخذ قرارًا مسؤولًا بعد ذلك دون تسرع أو نوبات غضب؛ وقفت حتى تخرج لكنها قبل أن تخرج أضافت لحديثها:

– "أعلم جيدًا يا سلمى أن قلبك معلق بالقدس؛ أعلم جيدًا ماذا يعني الحب، بل أعلم أكثر مِن الحب ماذا نعني بالحدود..

نظرت إليها بشيء من الأسى، وعيناها غارقتان بالدموع التي فقدت القدرة على النزول، أمسكت وجنتيها بشيء من الحنان:

– سلمى يا إمي وإن زبط تتزوجي جمال من القدس أنا حموت وأنا مش شايفتك، إن عطوكي لم شمل بعد تزوير في الأوراق مش رح يعطوني تصريح ؛ تصبحين بعيدة جدًّا كالقدس!

الأمر الواقع الذي تقع فيه الفتاة العربية بشكل عام يختلف عن العقوبات التي تعانيها نظيرتها الفلسطينية، ما الذي قد يكون أسوأ من قلب في مكان وروح في مكانٍ آخر، وجسد في مكان ثالث، ومع كل هذا من الغريب أن مدينتنا قادرة بعد على الحب.

***

أحمد

غزة – يوليو – 2014

في مصادفة ما أو بمشيئة القدر التقيا بعضهما البعض كأنهما غريبان لم يجمعهما شيء قط.

"هأنا أجدكَ بعد عامين من الانقطاع، أجدكَ متزوجًا بامرأة لا تشبهك ومن ذا الذي يُشبهك!

أعترف أنها امرأة تجهل من هي دلال المغربي، تقول لي كُفَّ عن المزاح حين أحدثها عن جرأة ليلى خالد خاطفة الطائرة بيغ **707**، تجهل ما أعنيه بال **TNT** وسلاح الدايم، تعتقد أن جيفارا جبهة شعبية، لا تعلم عن الحرب التحريرية التي قادها في فيتنام، لا تعلم شيئًا عن الشخص الذي هزم أمريكا، تراه على قمصان المراهقين ظنًّا منها أنه مغني روك أند رول كـ "ألفيس"، لا تعي شيئًا من الأنوثة الثورية، تقضي نهارها بإعداد طعام موروث عن نساء الطبقة العليا، شعرها مدجج برائحة – غوتشيه – وتعد_النساء اللاتي يتدلى من

أعناقهن حبات من الكرز والياقوت الصناعي حمقاوات، هأنا أجدك، وأنا أعبد الله ليل نهار يا جميلة أن تستيقظي لتملئي مضجعي بعبق البخور أو الكافور أو العود،فأنا مللت كل هذا التعجرف واللامنطقية في الزواج، لا بأس عندي صدقًا إن رشت فراشنا بعطر كذاك الذي أهديتك إياه في ذكرى لقائنا الأول، فهذا ما أحتاجه، كم أرغب أن تلون وجهها بقليل من الزينة المتواضعة الثمن! فالزينة عند زوجتي كالـ"الفازات " تزين بها مرآتها قبل وجهها، تغري بها المرآة، ولا تغريني، تباهي بها الزائرات المتكلفات ولا تغريني، أشتهيها امرأة تضع ماكياجًا رخيص الثمن، تبدو به جميلة كجميلة؛ أعترف أيضًا أن كل الذي أعلمه عن زوجتي أنها فقط تغسل المواعين قبل العاشرة وعند الحادية عشرة تعطيني حقوقي الزوجية في غضون إحدى عشرة دقيقة ثم تنام.

دار الزمن يا حبيبتي لنلتقي بعد عامين وأحد عشر يومًا، لأضع بين يديك التي ملت الزناد وسومًا أذكر بها أنني أنا الانهزامي أدناه، اعترف بكامل إرادتي وبما تبقى من قواي العقلية أنني متزوج بامرأة على ذائقة أمي ومديح أختي ونظرة شرعية واحدة ولا أحبها وأشتاق إليك!"

هذه المرة كان فراقهما بعد خمس عشرة دقيقة قضاها أحمد محدقًا بها؛ بدأت صالة المغادرة تنادي على المسافرين:

"على السادة المتوجهين إلى مطار القاهرة التوجه إلى الطائرة".

قبل أن يذهب أوقف جميلة قائلًا: (رح ترجع طريق حيفا بيروت)، نظرت إليه متعجبة؛ أيعقل أن يكون هذا أحمد؟! لم يمنحها أي جوابٍ آخر، فقط هي نسيت ملامحه بشكل شبه كامل.

زوبعة ما عصفت داخل جميلة قبل أن تصعد طائرتها المتوجهة إلى القاهرة، كل الأساطير التي قالت إن الرجل ينسى المرآة التي يحبها باتت واهية، هي نسيت حتى ملامحه وهو لم يفعل، كيف تحتفظ بتلك الملامح التي لطالما أوجعتها وأرهقتها؟!كيف تنسى الملامح التي جعلت منها امرأة وهي لم تبلغ التاسعة عشرة من العمر؟! تذكر جيدًا الخيانات الكبرى منه وخيانتها لأهلها بسببه، تذكر جيدًا الاتصال الهاتفي من صديقتها:

- جميلة، كيف أنت؟!

- بخير.

- متأكدة!

- متأكدة في شي! صاير شي ما بعرفه؟!

- جميلة أحمد خطب.

ذاك الاتصال الذي كان يسبقه أسبوع مليء بالوعود، وعود بالزواج والحياة الرغيدة والسفر إلى باريس، واسم أول طفل لهما؛ تعترف انه استغل طفولتها على نحوٍ خادع.

وضعت في أذنها سماعات الأذن وبدأت تستمع إلى الأغنيات القديمة التي تجمعهما، تذكرت رسالتها له قبل عامين وهي في حالة يرثى لها إثر زواجه بأخرى..

"بعض الموسيقى التي تضرب طبلة أذني لطمات امرأة فقدت حبيبًا لها صار زوجًا بعد أن وسَّطَ لدى والدها كُلٌّ وجهاء القرية حتى يقبلوا به صهرًا لهم، يحفظ ابنتهم، ينجب منها طفلين يلعبان بتراب البحيرة الكائنة عند باب الترحاب بكل عابر سبيل، بكل مطرب، بكل حب، وبكل مرض، حتى ذاك الذي فتك بجسد عبد الحليم حافظ..

بعض الموسيقى كذلك تشبه دقات قلب عند أول لقاء، عند أول قبلة، عند أول عناق.

تأخذك بعيدًا.. بعيدًا جدًّا، تجعل منك شبقًا منتشيًا تهوى تفاصيل امرأة غجرية تضرب المندل لسائحين من الأندلس في صحراء الجيزة، تخلط بين ملامحهم وملامح سكان مصر الأصليين وتفرق بينهم بدافع اللغة..

أما عن آخر نوع من الموسيقى فيشبهك للحد الذي يجعلني أبكي وأنا لا أبكي على ميت يشبهك بكل قرف؛ فهو كخداعك وإيمانك بالخرافات، وبقوة هرقليز يشبهك في سعيك الجشع لاكتناز الحسناوات حولك.. يا قارون، مات الأول وهو يكتنز مالًا لم ينفقه يومًا، ستشق الأرض يومًا وتبتلعك وأنت تقيم مؤقتًا في أحضان عابرةٍ ما.

جاد – جميلة

روما - 2015

16-9-1982 صبرا وشاتيلا

مخيمات اللاجئين الفلسطينيين – لبنان

استيقظ المخيم على فاجعة استشهاد أكثر من 3000 مواطن فلسطيني من المهجرين في المخيمات اللبنانية، مُنعت الصحافة من دخول المخيم، البعض فقط، قلة فقط من نجا، عائلات كاملة أبيدت مُسحت من السجل المدني.

من ضمن الشهداء زوجتي وولدي أحمد وابنتي غادة، أما أنا وابني الذي يبلغ من الأعوام ستة عشر والقابع في سجون الاحتلال يُدعى "سمير" قد نجونا، هل تدركين الآن يا جميلة لماذا أُبغض عروبتي؟!

عروبتنا التي تتحدثين عنها دومًا وتفتخرين بالانتماء لها أخذت مني حبيبتي وطفلينا ومترلنا الذي يوجد في مخيم،بقيت وحدي، وحدي

تمامًا.. لا أملك صورًا لأطفالي ولا وشاحًا لزوجتي، لا أملك حتى نفسي، أنقذتني أيدٍ مُدت عند انتهاء المذبحة، أخرجتني من البدرون الذي كنت أجهز فيه رسالة الماجستير، أخرجتني وأنا عاجز عن الصراخ على أطفالي حتى يحتموا معي، أتعلمين: كم من الصعب أن أرى روحي ملقاة على الأرض وجسدي حي!

أتدرين يا جميلة..

حين تهب الريح في المنفى تقلعني من منابتي، ترسلني إلى جذوري الأولى، إلى حيفا، غسان إلى سور عكا والقلاع الممتدة على ساحل المتوسط، تنشد الفلوات صبرا و شاتيلا كأيّ أبٍ عاش في الغربة ليفجع بلحوم أطفاله ممزقة معلقة على الأبواب..

صار يصيح بصوت منكسر أمام طالبته الذكية ويعاتب ثوب الجاكارد المخملي الذي يرتديه..

" يا وطني العربي أعد غزل أجزائهم، ولا تدع شرايينهم ممراتٍ للعابرين العابثين غير العابئين بأوجاعنا، لا تدع يا حلمي العتيق من زنار كنعان جنديًا يشير إليّ بإصبع السبابة "ارحل"، يصنع داخل التحاماتي زوبعة ما بين امرأتي التي تُغتصب وطفلي الأسير ما بين الصليب المنكّس حدادًا، والهلال المستباح، ما بين وطني والأشباح ما بين إيماني الوحيد بأن أمتي نائمة ويشترط علي تركها تحلم وألا أزعجها بخطواتي التعيسة حين أسير، لا تؤاخذ ضعيفًا يا وطني الرائع

فُقئت عيناه، ضريبةٌ هي علينا أن نتجسس نبض العروبة الخافت الضرير..ظلّ يكرر هذه العبارات التي تشبه النعي الذي لم يتمكن يومًا من إلقائه على مسامع أحد.

ثم انهار وهو يبكي بحرقة فاقدًا ما تبقى منه يضرب بقوة على نافذة مكتبه والأمطار تهطل، كأنما السماء اتفقت معه في حزنه هذا، وبدأت تشاركه أوجاعه.

– جاد، أنا آسفة لم أكن اعلم هذا، ظننتك غير متزوج أساسًا، لا أدري ماذا أفعل الآن، أنا آسفة جدًّا، قالتها جميلة وهي تمسح بطرف قميصها دموعها التي تسللت رغمًا عنها.

خلع نظارته، مسح دموعه بالمناديل الورقية،ثم عاد لارتدائها باسمًا:

– لا بأس يا جميلة، لم أكن أنوي إخبار أحدٍ بقصتي، فالماضي بالغربة يُعاقب عليه القانون.

– لم أفهم!

– إن علم أحد بقصتي هذه سيظن أنني آتٍ من المخيم حتى أفجر نفسي بالمواطنين العزل، الغربة ليست وطني يا جميلة حتى أتمرد، حتى أثور، وطني سُجن مذ سُجن ابني سمير..

– ألم تزُر سمير قبلًا!

– حاولت، لكن لم ينفع معهم هذا، يعتبرونني لاجئًا سياسيًّا يا جميلة.

- جاد، بتعرف أني بحب فلسطين؟ بحبها لدرجة قبلت أدرس برا وتركتها.. بحبها لدرجة إني بكتب "فلسطين" على كل ورقة من كتبي وعلى كل ورقة ممكن توقع تحت إيدي.

- وأنا بحبها لدرجة تركت فلسطين في فلسطين وإجيت على هون بس يا جميلة تركتها وأنا كاتب على شجرة ليمون كل شجرة زيتون على كل شجرة زيتون.. إني عائد.. عائد.

***

سلمى

غزة – يوليو -2013

انتهى يا جمال، علاقتنا ليست خاطئة بقدر الأخطاء التي ألزمتنا الفراق، ماذا سننتظر؟ طلبت مني عامين، كنت تأمل كثيرًا أن يتم تحريرنا من عبودية الحواجز، حتى أوسلو وأراضي ال 67 لم تنصفنا، كيف ينصفنا الذُلُّ يا جمال!

جمال لليوم الذي أُرسل لك فيه رسالتي هذه أذكر المستوطنات التي بُنيت في بتاح تكفا، ومجازر صبرا وشاتيلا، والمستعربين، وقنابل الغاز المسيل للدموع عند كل صلاة جمعة في المسجد الأقصى، وهدايانا التي نختزلها بأغانٍ وطنية عن الثورة، لليوم الذي أحادثك فيه وتطمئنني عن وضع القدس تراسلني صديقة من "أبو ديس" وتُعرب عن قلقها..كلمة قلق يا جمال، أبغضها؛ فكل المجالس التي أُقيمت

وتُقام كانت تفتح جلستها بـــ"نعرب عن قلقنا" تُذبح، نُقتل، مجازر يا جمال! مجازر! ومجلس الأمن يُعرب عن قلقه، والجامعة العربية تستنكر، وأنا يا عزيزي أعرب عن أسفي، عن عجزي!

فلتكن هذه آخر رسائلنا،أنا أرجوك، فأنا سأتزوج عمار ابن عمتي على الأقل ما بنحتاج تصريح حتى نزور بعض،ما بنحتاج نقلط الجدار مشان نمسك ايدين بعض، عمار شب منيح دارس هندسة ومعاه هوية خضرا وراتب 2500 شيكل آخر الشهر، صدقني عمار منيح ورح نتزوج.

وقعت في نفس جمال غصة، الاحتلال يأخذ منه كل شيء، منزل والده خلف الجدار، منزل جدته في حيفا، شجرة زيتون في الرملة، وسهرات المساء على شاطئ عكا، يأخذ منه سلمى وأحلامه الكثيرة معها.. لم يجب على رسالتها اكتفى بحذفها فقط.

ليلة كتب الكتاب تضرعت سلمى لله بصلاة استخارة والدموع تملأ مآقيها، ستصلي الاستخارة التي حلمت أن تصليها دومًا حين يزورها جمال في غزة ليأخذها القدس..ستصليها وستبقى في غزة لحين الفرج.

بدأت تواسي نفسها ربما شاء الله أن أتزوج بعمار المقاوم..أعني إنه لشرف عظيم أن أتزوج بشاب يحمل روحه بين يديه، يقدمها للوطن راغبًا، تعلقي بجمال كان تعلقي بالقدس، الآن سيأتي عمار الذي يحمل

حب المدينة ذاتها في قلبه،سيعوضني أنا متأكدة، سينسيني الحواجز التي وضعت في نفسي عقدًا نفسية.

أتت أمها تلك الليلة وبدأت تُحدِّثها عن المسؤوليات المترتبة عن الزواج، وعن وضع عمار الخاص، وأنها يجب أن تكون سرًّا وسترًا عليه خاصة أنه مطارد من قبل دولة الاحتلال، نظرتْ إلى عيني ابنتها، قالت لها إنها أم قاسية تقدم ابنتها لتكون أرملة في صغرها، تعلم أن استشهاد عمار أمر حتمي، سلمى عارضت أمها قائلة إن الأعمار بيد الله، وأن هذا العمر واحد، مشكلاتنا يجب أن تتخطى الأمور الحتمية، قالت لأمها إنها فتاة مغامرة غامرت قبلًا وأحبت جمال، ما المانع الآن أن تغامر لتتزوج عمار؟!

منحت سلمى والدها الموافقة على زواجها بعمار، ولم تنتظر حتى رسالة من جمال، تجاهلت نظرات والدها المفطور قلبها على ابنتها، لكن لاشعوريًا قبّلت رأس ابنتها، أخبرها أنها سعيدة جدًّا لقرارها هذا.

– عمار شاريكي بالحلال وإن شاء الله رح تسعدوا سوا يا أمي، متخافيش.

***

سارة

باريس – 1982

كان مرقص يكتب كلمات غير مفهومة على سطح الماء، لكنها كانت تستقر كأنما يكتب على ورقة، والفتاة تنظر إليه من ثقب المفتاح، ماذا يفعل سيدي؟ بدت مرتابة وعالقة، هل تصعد إلى الأعلى أم تبقى لتنتظر ما قد يحدث؟! "لربما كان السيد مرقص دجالًا"، قالت في نفسها، ثم استعادت ذكرياتها حين كان يأخذها كل أحد إلى الكنيسة، لكنه توقف عن ذلك منذ أن بلغت سارة الخامسة عشرة من عمرها، لا يُعقل أن يذهب الدجالون إلى الكنائس!

بدأ جسد مرقص يتحرك على ضوء الشمعة الخافت؛ ما دفع سارة للهرب من أمام باب البدرون صاعدة بخطوات ثقيلة إلى الأعلى حيث الممر الذي يؤدي إلى الصالة الكبرى ذات الطراز الإسبرطي، في الزاوية توجد خزانة مصنوعة من الخشب القاسي، محفور على جانبها

الأيسر "6 6 6"، لطالما لفت هذا الرقم انتباه "سارة"، لكنها لم تعتد أن تسأل السيد إلا عن أماكن السكر والشاي والبذور المجففة؛ وخوفًا من أن يصدر خشب الأبنوس المتداعي صوتًا يدل على وجودها، تسحبت بمهارة، دخلت المطبخ الذي يمكن الوصول إليه مرورًا بالصالة بسرعة مصابة بالهلع مما كانت قد رأته؛ حاولت جاهدة أن تفسر قدرة مرقص على الكتابة على سطح الماء، لكنها لم تذكر يومًا أيّ درس من دروس مرقص الذي تتحدث عن قدرته تلك، مرة تحدث عن الغيم من عدة مناظير، لكنه لم يتحدث عن المياه، ما لبثت سارة أن سمعت خطوات مرقص تصعد إلى الأعلى؛ خافت أن يصعد فيوبخها لأنها وقفت تنظر إليه من ثقب الباب فبدأت تتلو الصلوات آملة أنه لم يكن يراها.

– سارة.

حين سمعت اسمها وقعت من يدها زجاجة الأعشاب التي يحتفظ بها مرقص ليتناولها على شكل كوب ساخن كل مساء، ركض نحوها بخطواته الثقيلة:

– سارة؛ ما بك عزيزتي؟!

تلعثمت وهي تجيبه بلا شيء، لم يشأ أن يضغط عليها حتى يعلم سر شرودها هذه الليلة، بدأ يساعدها بجمع الزجاج المكسور عن الأرضية، طالبًا منها أن تحضر قطعة قماش ليجمع ما يصلح من تلك الأعشاب لحين إحضار المزيد من صديقه الذي يسكن التلال.

نظرت سارة إلى السقف حين خلدت إلى فراشها في محاولة واهية للنوم، لكن كل ما كان يرتسم في مخيلتها على السقف وجه مرقص الأبيض الطويل وأنفه المعقوف المسطح، ما السر الذي يخفيه عني السيد؟ كيف استطاع أن يكتب على الماء بهذه البساطة؟ ولماذا توقف عن أخذي كل أحد إلى كنيسة "سان سلوبيس".. حين عدنا من بحر جاوة، هل للقبائل هناك علاقة؟ لقد كانت قبائل غريبة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، يأخذون جلد "سمك الفنين" الموسمي ويجففونه من ثم يطحنونه ويضيفونه إلى الحساء مع ثوم غير مقشر وقطعة حديدية على شكل نجمة، حيث يبدأ زعيم القبيلة السمين جدًّا بتلاوة صلوات بلغتهم غير المفهومة، مع رقص للنساء حول الرجال الذين يجلسون في حلقة دائرية ممسكين بأيدي بعضهم البعض،وبحركة متواترة يصدرون صوتًا من أفواههم المقفلة؛ تنتهي هذه الشعائر بصرخة من إحدى نساء القبيلة ترسم على عنقها نجمة خماسية أيضًا، قدموا لنا الحساء بعدها، لكنني رفضت تناوله، فأثار هذا حنق السيد مني قائلًا لي إن رفض الضيوف تناول حسائهم يعد إهانة مباشرة لجميع أفراد القبيلة، وأن الأرواح الشريرة تسكن الشخص الذي يرفض تناول حساءهم؛ ما كان لي يومها إلا أن ارتشفتُ أول شربة، فبدأت الطبول تقرع صارفين انتباههم عن صحن الحساء الخاص بي، فسنحت لي الفرصة للتخلص منه..بعد أسبوع من مكوثنا على مشارف الشاطئ قرر السيد أن رحلتنا قد انتهت، حزمنا حقائبنا ورحلنا، حين عودتنا بدت تصرفات السيد مختلفة؛ لم تقتصر على عدم ذهابه إلى الكنيسة بل شملت طريقة طعامه وتأمله.

أحمد

قطاع غزة – 2013

تحشرني بين أوتار قيثارتك المليئة بتواقيعهن، بتُّ أغار منه كثيرًا، ينام بأحضانك تداعبه بعوازل بنانك، إذا دعاك شوقًا لا تخذله، أغار منه كثيرًا، أجل كيف لا يا صغيري وزاوية غرفتك المليئة بكل شيء إلا مني تعانقه ويستهويك نفضه إذا أُصيب بمرض الغبار،تهتم بقيثارتك للحد الذي جعل من موسيقاه لعنة تؤلم فؤادي على حين شوق ؛ كن عادلًا يا صغيري وانفض غبار أشواقي التي باتت تخنق صدري،لا تدع جمادًا آخر كمعشوقتك الجديدة يأخذك مني؛ كفانا نسكن بيوت الشعر، امنحني منزلًا لأبنائنا، منزلًا يقينا برد الشتاء، حر الصيف، وكذبات نيسان، يقينًا قلوب الحرب من حولنا، امنحني إن لم تستطع عرزالًا يرينا وجه الله الغامر، عرزالًا يقبع بين مدينتين بين مسجد وكنيسة بين حيين بين عشق شبابي وسكينة شيب..بين أحلامنا بطفلين

الأول يحمل اسم والدك والثاني نتشاجر عليه، ولا تنسني إن لم نستطع أن نكون معًا يومًا ما.

رسالة جميلة المدججة بالحب، بالرغبة في المجازفة ثانية، بالتضحية بكل شيء لأجل أحمد لا تعني له شيئًا، يراها رسالة عادية مليئة بعبارات الاستعطاف والاسترحام "جميلة شايفيتني فاتح جمعية خيرية" جملة قالها لأصحابه كثيرًا، يجهل هو أن الأنثى حين تحب بصدق تتنازل عن كل شيء، كيف لا تفعل ومنذ صغرها يدعوها المجتمع أن تحافظ على جسدها، تستره حتى بالنهاية، تتنازل عن أغلى ما تملك، عن الشيء الذي عانت جاهدة لأجلِ الحفاظ عليه، ليراها الرجل أخيرًا وليمة على سرير خادمة في المطبخ؟! وفي محاولات بائسة لإظهار نفسها، إبداعها، يتعنت المتعنتون "أخرتك مطبخ زوجك"، حتى اقتنع الذكور أن الزوجة طاهية،آلة ولادة، مصدر لإشباع الشهوات والرغبات، متناسين أنها تحمل ذات الروح، روح الرب التي نفخها في عباده حين أنشأ الخليقة.. متجاهلين أن الفرق بينهم فحسب ينعزل تحت بنود الأنوثة والذكورة.

أمر الحذف لتلك الرسائل هو كل ما تستحقه تلك المسكينة؛ لأنها أظهرت حبًا جمًا في موضعٍ مختلف للمواضع الرسمية له، أحيانًا يأتي الحب أخيرًا ليذهب الحبيب أخيرًا أيضًا، هذا قرار أحمد النهائي بعد رفض والدته زواجه بفتاة غزية، ما أثار حفيظتها كذلك أن والدها

بريطانية، أمور كثيرة قد تربطها والدة أحمد بجنسية والدة جميلة، لكن أكثر ما قد يريح قلبها أن أحمد لم يحاول ثانية مع والدته، لم يُصر على هذا الزواج، وكأنما القضية قضية "رفع عتب" لا أكثر، وعلى أساس كهذا يتحطم السلام في قلوب العاشقين.

***

سلمى

يوليو – 2013

الهجرة إلى دواخلنا تأتي أحيانًا من جمود ورغبة عارمة في البقاء بعزلة تامة، سئمنا البشر، سئمنا ما يفعلون ما،حروب مفتعلة ونتائجها أشياء لا تمت للسلام الداخلي بصلة، حتى تستيقظ حينَ نسقط عادات جديدة، عادات أقوى أو بالأحرى أقسى؛ يموتُ القلبُ،حينها فقط تُدفن المشاعر حية، لا مجال للحب، لا مجال للكره، لا مجال لشيء، فقط طريق مليء باللامبالاة، الأذواق لا وجود لها.. أحمر، أخضر، برتقالي، الكثير منها لكن على شكلٍ غير متناسق، لا أدري ربما الانكسار تلو والآخر يجعل النفس لا تفكر إلا بالهرب بعيدًا!

ويبقى السؤال الذي يأخذُ حيزًا كبيرًا من التفكير، هل كُلُ العشاق تُعساء إلى هذا الحد؟!

وقفت منتشية بعد يومين من الرقود الطويل،لا زاد، لا ماء، والقليل من الأكسجين يداعب رئتيها.. شهيق، بكاء، زفير.

مسحت بأطراف أصابعها ما تبقى من شُحِّ الدموع، هي الآن تقفُ وحيدة ترتجف قدماها قليلًا لكنها قادرة على الصمود، من هُنا.. من هنا فقط تُولد لديها قدرة جديدة تمامًا ألا وهي قدرة الاستناد على نفسِها فقط، مؤمنة لحدٍّ كبير أن هذه الصفعة لم تقتلها استنزفت فقط القليل من قوتها..

لم تُرد سلمى أن تبقى سجينة لأكثر من هذا، تناولت حديثًا مشوقًا مع نفسها وأخذت عهدًا أنثويًّا بأنها ستحول كل الكبت الدولي والطاقة السلبية إلى عمل ايجابي أكثر منطقية وواقعية.

حين فتحت نافذتها أشفقت على البلابل السجينة في قفصها المزين فَحرُّ أيلول كان يؤنس هذه الطيور المسكينة.

- هه! أنا شديدة الأسف أقحمتكما معي في مشكلاتي الخاصة وكأن القفص لا يكفيكما..أيها الأصفر الصغير لقد أصبحتَ هزيلًا!

رفعت رأسها إلى السماء، وإذ بالشمسِ تلوم عينيها البنيتين وتضْربهما بقوة، كأنما عاشق يعاتب معشوقته على غيابها الطويل، يؤنبها ويرجوها ألّا تفعل هذا ثانيةً، ثُم يمدها بالقوة والنور لتستيقظ من غفوةِ نفسها، هُنا تخبرها الشمس بأن الظُّلمة يتبعها نور، وأن عينيها حين تألمتا عند النظرِ إلى الشمس عادت مجددًا إلى طبيعتهما، تستطيع بكل قوة الإبصار جيدًا الآن.

خرجت من غرفتها مبتسمة تبحث عن طعام الطيور، لم يسألها أحد من أهلها ما سبب هذا الرقودِ الطويل، كانت الأم تشعر بعذاب ابنتها وضيقِ حيلتها، نسيت الأم تمامًا قوة سلمى، ضمتها إلى دُعائها بشكلٍ مكثف في اليومين المنصرمين.. حاولت دمجها في جو الأسرة مجددًا، لكن بالنهاية أيقنت أنها بحاجة إلى عُزلتِها الخاصة لتعيد ترتيب حساباتها.

أنبتها ذات يومٍ بداعي الأمومة حتى تكون أكثر احتراسًا فيما يخص خافقها..

- ذاك الذي يقع في الجهة اليُسرى من جسدك.. لن يشعر كل يوم بشعلة الحب فلا تطفئيها بمغامرة نهايتها محتومة.

سلمت الأم نفسها للأمر الواقع، لا تستطيع أن تمنع ابنتها من خوض التجارب، وإن كان هذا على حساب قلبها وحيويتها، كانت تؤمن أن الطريق المستقيم لا يصنع سائقًا ماهرًا، وأن الطيور التي ولدت في القفص تظنُّ أن التحليق أمر محرم.

لم تستمع إلى حديث والدها، تجاهلته تمامًا، وفي غفلة منها نسيت أن الرب منح الأم شيئًا يشبه الحاسة السادسة، تعلم ما ومن سيؤذي قلب طفلتها، ظنت سلمى أنها تفتعل الجنون، أغرتها عبارات الحب والولع التي تُنشر على مواقع التواصل الاجتماعي من فتيات لا يتجاوزن الخامسة عشرة من العمر، أغراها حديث المغفلين عن جنون

الحب، هي الآن تتحمل عاقبة اندفاعها وتسرعها، هذه المرة العاقبة مؤلمة جدًّا.

- الأحد القادم سنتوجه للمحكمة لعقد القِران بإذن الله.

- إن شاء الله خير.

***

نرسيس

روما - 2015

الكنيسة الكاثوليكية ستعمد اليوم جميلتنا، بعد التعميد سندعو الأب أوكارديوس لحفلة الشواء على شرف ميلاد طفلتنا الصغيرة، ستكون حفلة بسيطة أنا وأنتِ والمحافظ أرمان وأور سال، الجدة:

- حين تقول عني جدة يا ألفي أشعر أنني أبلغ من العمر الثمانين، يا ولد أنا شابة حين تكبر نرسيس سنكون صديقتين وسأؤنبها إن نادتني بجدتي.

ضحك أرمان بصوت مرتفع، أنتِ شابة يا أور سال؟ كفاكِ لهوًا لقد، شاب شعر رأسك يا امرأة.

- أرمان، ما أدراك أنت سن الأربعين هو سن أوج الشباب.

- مذ تزوجنا يا أور سال وأنت تبلغين من العمر خمسة عشرة عامًا تتحدثين عن سن أوج الشباب، مارثا يا ابنتي إن أمك تعاني مرضًا غريبًا، حين كانت في العشرين قالت إن العشرين سن أوج الشباب والثلاثين كذلك، وها هي تتحدث بنفس الأسلوب عن الأربعين، يا شابة أنت على حواف الشيخوخة..استيقظي من أوهامك لقد أصبحت جدة!

- حمواي العزيزان، دعكما الآن من الشجار نحن هنا الآن للاحتفال، إن سيدتي أور سال تزداد جمالًا، كلما كبرت وأنت كذلك أيها المحافظ أرمان تزداد شبابًا، علينا أن نعمل حثيثًا على إيجاد عروس عشرينية لك.

ألقت عليه أور سال كل شيء كان بجانبها، وطلبت منه التلهي بأسرته وتركه من أرمان الذي يهوى النساء سلفًا.

- إن حماك يا عزيزي ألفي لا يحتاج مثل هذا النوع من التشجيع فهو مشجع سلفًا، وإياك أن تفكر في يوم من الأيام أن تترك ابنتي مارثا أو تتزوج عليها عابرة تلفت أنظارك.. سأدخل السجن راغبةً حينها..

ضحكت مارثا ووجهت كلامها لنرسيس الوليدة قائلة، إنهم يتحدثون عن زوجات جديدات يا فاتنة في يوم تعميدك.. حين تكبرين سأشكوك والدك، عليك أن تصطفي بجانبي، هاه!

وإلى جانبي أيضًا يا نرسيس، الرجال لا تؤمني لهم حين تكبرين، إياكِ.. قالت أور سال الجدة هذا واستعدوا جميعًا للقاء القس أروكاديوس.

في الطريق إلى الكنيسة أوقفتهم عجوزًا هندية تبلغ من العمر ما يقارب المائة عام، حدقت كثيرًا في الطفلة نرسيس مما دفع مارثا إلى تغطية وجهها بالملاءة طالبة منها الابتعاد، لكنها لم تغمض طرف عين وهي تنظر إلى نرسيس بفزع شديد.. أخذت العجوز تنثر كلمات بلغة غير مفهومة، لكن الملامح كانت كفيلة بجعل كل من أور سال و مارثا و ألفي و المحافظ يصابون بفزعٍ شديد.

– ما الذي تريدينه منا أيتها العجوز؟ هاكِ نقودًا وارحلي من هنا.

أمسكت كف ألفي وبدأت تتمتم:

– لقد جنيتم على أنفسكم بإنجابكم لهذه الطفلة.. سوء طالع يا سيد.

التفتت إلى مارثا وأور سال:

– ألم تخبركما الغجرية بالعاقبة؟! أتظنان أنكما هكذا تتحديان القدر؟

صاحت:

– حمقى، حمقى.

وهمّت بالرحيل، سارعت مارثا وهي تبكي:

- يا سيدة، أرجوك.. توقفي

لكن العجوز الهندية لم تجبها، رحلت غاضبة، حاول "ألفي" جاهدًا طمأنتها لكن لا فائدة.

حين وصلوا الكنيسة كانت مارثا تحمل الرضيعة وهي في حالة يرثى لها، جميع المشاعر تظهر على وجهها بذات الوقت، مشاعر الخوف والقلق والأرق والجهد الذي بذلته في مرحلة الطلق، شعر الأب بأن شيئًا ما يجري، ولعلاقته الوطيدة بالمحافظ "أرمان" سأله عما يجري، أخبره أرمان بما جرى معهم في الطريق، وبسوء الطالع الذي منحته "أوركيدا" ل "مارثا" ووالدها قبيل زواجها من "ألفي" قبل عامين تقريبًا.

- عزيزي أرمان، كان بودي أن أنفي كلمات "أوركيدا" لزوجتك وابنتك، كان بودي فعليًّا هذا، ومن مكانتي في الكنيسة لا يحق لي أن أجزم بأن نبوءها سليمة.. إن موقفي الآن محرج جدًّا.. جل ما نستطيع فعله الآن الانتظار..دعنا نعمد الرضيعة الآن ونستكمل حديثنا بعد حفلة العشاء الليلة.

استيقظت جميلة هذه المرة على فزعٍ اختلفت كل الرواية الآن.. لم تُضَف أحداث جديدة مثل المرات السابقة، بل بدأت القصة من لحظة انتهائها الليلة الماضية، حاولت أن تعود للنوم لكنها عجزت عن هذا،

فتحت الإنترنت، حاولت البحث عن أحداث ذات علاقة بما تراه في أحلامها، وجدت رؤوس أقلام تتحدث عن نرسيس الفتى الجميل الذي تحدث عنه كارلوس في إحدى رواياته، وأيضًا وجدته مذكورًا في رواية لماركو باولو عدا هذا لم تجد شيئًا آخر.

عند الخامسة صباحًا استرجعت جميلة كلمات البروفسور جاد بالأمس عن عائلته التي استشهدت في أحداث صبرا وشاتيلا، بدأت تؤنب نفسها على جموحها في انتقاده.. لكنها عاشت في خيالاتها كثيرًا، تتشابه هي مع جاد في الفقد..لكن ما فقده جاد أعظم، تذكرت جميلة أيضًا أحمد، كان صباحًا حافلًا بالذكريات القريبة والبعيدة.

***

أحمد

بيروت – 2014

يقطن أحمد وزوجته صوفيا في أحد المنازل التي تقع في شارع غورهو السكني التجاري في الجميزة في المنطقة الأشرفية في بيروت لبنان، سمي هذا الشارع على اسم الجنرال الفرنسي "هنري غورهو" وهو أحد الشوارع الأكثر عصرية ورقيًا في بيروت و المليء بالمطاعم الفرنسية، إضافة إلى الحانات والبارات، لطالما خان أحمد بعض القوانين الدينية التي تحرم عليه شرب الخمور، لقد كان يجلس ساعات طويلة في واحدة من الحانات الفرنسية الأرستقراطية هربًا من فكرة وجود زوجة لا يحبها، ومن الحانات إلى "قهوة القزاز" التي تعج بالأيادي الدافئة التي تمسك بعضها البعض مع بعض نظرات التوق والتودد بين الزملاء الجامعيين، لقد كان يربكه صوت فيروز الذي يعبق المكان مع

فنجان القهوة اللبنانية، كل المقاعد من حوله مليئة بالحب إلا المقعد المقابل له كان فارغًا من جميلة دائمًا.. كل الأماكن تذكره بها..

لطالما قالت جميلة لأحمد إنها لا تمتلك أصابع طويلة، قد تضغط يومًا بقبضتها على حجر على زناد، على جروح كثيرة عاشت معها منذ وفاة والدتها، لكنها لن تستطيع أن تقبض على كف يده، لطالما طلبت منه أن يقبض هو على كف يدها،كانت حمقاء حين طلبت هذا، لا يجب أن يمسك الرجل زمام الأمور في الحب والعلاقات، إنه أضعف من هذا ؛ كأنها تطلب من طفل أن يحرس مخزنًا للأسلحة الثورية، أو أن يحفظ سرًّا كبيرًا كان أم صغيرًا... قرر أحمد أن يفصح لزوجته عن ماهية مشاعره بعيدًا عن المسرحية التي لعب دور البطل فيها طويلًا، كانت الساعة الثانية صباحًا حين صعد مترنحًا تفوح منه رائحة الويسكي إلى منزله، ومع أنه كان شبه واعٍ فإنه آثر عدم الصمت هذه المرة،لن يحتمل يومًا آخر داخل قوقعة الزواج الكاذب، فتح أحمد باب منزله إذ بصوفيّا ما زلت تنتظره تلف حول ذراعيها شالًا صوفيًّا وتشاهد فيلمًا عربيًّا لسعاد حسني.

- حبيبي، إنهم يعرضون فيلم صغيرة على الحب.

ضحك أحمد بتهكم، حتى هذا الفيلم وتلك التفاصيل التي تتحدث بها زوجته بأريحية تربطه بالفتاة الغزيّة، قال لزوجته بصوت حزين.. إنه فيلم جميلة المفضل كذلك؛ شعرت صوفيا بالأسى، كانت تعلم منذ

البداية أنه أحب فتاة قبل زواجه بها، لكنه لم يخبرها باسمها مطلقًا حتى أتت هذه اللحظة، أنزلت قدميها عن الأريكة وخلعت شالها الصوف، ثم وقفت وتقدمت نحوه:

- أحمد أنت شارب، ريحتك ويسكي.

وضعت راحة يديها على وجهه، فأبعدهما وهو يبكي، اقتربت منه أكثر وجعلت جبينها ملاصقًا لجبينه:

- هششششش أنت بخير،أنت بخير؛ لا داعي للتحدث الآن بإمكاننا التحدث صباحًا.

أبعدها أحمد مجددًا:

- أنا بكامل وعيي الآن، كنتُ سكيرًا مدة طويلة صوفيا.. أنا لم أعد أشعر بشيء تجاهك، لم أكن أشعر منذ الأساس، لا أدري ما الذي يحدث حقًا، نحن الآن معًا منذ قرابة العامين والنصف..ليس لدينا أطفال،ليس لدينا طموحات متشابهة، تكادين لا تفقهين رغباتي، ملابسك أهم عندك مني..أنت تتابعين عروض الأزياء أكثر من متابعتك لطلباتي واحتياجاتي اليومية، أنا بتُّ أشعر أنني أقطن في شركة للموضة أو ما شابه.. تشابهين بيروت ولا تشبهك هي، كم كنت أحتاج أن أرى شخصك أنتِ لا الشخص الذي فرضته عليكِ الطبقية.. عليّ أن أعود إلى "قطاع غزة" هذه الفترة.

صمت أحمد قليلًا ثم أضاف بشيءٍ من التردد وهو يحاول الاستناد إلى الأريكة حتى يجلس، بتوتر:

- صوفيا.. قبل أن أذهب سنتوجه معًا للمحكمة حتى ننهي ما بدأناه،أنا مستعدٌ للتنازل عن كل شيء، مترل بيروت والمؤخر والمقدم و كل شيء آخر تطلبينه مني، أنا أشتري حريتي يا "صوفيا"، الرجل الحقيقي يدفع أغلى الأثمان حين يتعلق الأمر بالحرية..

- إذا هكذا انتهينا يا أحمد؟

- أنا أسف.. لا أملك مزيدًا من الكلمات، لكنني لا أرغب أن أجرحك بانتقاداتي..أنت إنسانة جيدة، لكننا غير ملائمين لبعضنا البعض.

- كتر خيرك.. لن أغصبك حتى تبقى زوجي، وبالنسبة لموضوع الأطفال تعلم جيدًا أن الأمور بيد الله.

- لا بأس،أتمنى أن تبحثي عن ذيول غفران، ربما تشفع لي العشرة عند قلبك وتفرض عليكِ مسامحتي يومًا ما.

- غدًا عند التاسعة إذًا، ولا أريد منك شيئًا، كما تريد، أنت حر من قفص الزوجية..

نظر في عينيها، لم يشعر بأنه قاسٍ كالآن، لم يكن يلمح لها مسبقًا رغبته بتركها، هبَّ بها كعاصفة..ربما سيكون هذا عناقنا الأخير، عانقها حتى هدأت..

غريبة هي الأنثى مهما يكن حجم الجرح الذي تعانيه، يذوب كليًّا عند عناقها للرجل الذي تحب..تستحيل إلى طفلة العامين، فقط تبكي

كأنما دميتها الغالية بليت، أجل الرجل دمية المرأة التي تحبه..لن يجد أعظم من معاملة كهذه حين تتعلق المرأة بدميتها.

نام أحمد هذه الليلة في الصالة،ونامت هي باكية على السرير الذي جمعهما مدة العامين،تشعر بالاختناق الشديد،وهو كذلك،أو بالأحرى هي فقط..ستبقى الشابة المطلقة بعد عامين ونصف من الزواج، ولا تملك أطفالًا، لم يفكر أحمد بالنتائج المترتبة وآثارها على زوجته حتى الصباح، يفكر فقط بجميلة التي تركها في المطار، توقف الزمن عندها، عيناها منحتاه الجرأة للإقدام على مثل هذا القرار..سأعود إلى قطاع غزة وسألتقي جميلة مرة أخرى،سأفي بوعودي لها، سأتقدم لخطبتها، ما الذي يمنع والدها من قبولي صهرًا له؟! أنا الآن حاصل على درجة الماجستير في السياسة والاقتصاد،أملك منزلًا في بيروت وآخر في القطاع، ووظيفة انتقالية بين جامعات القطاع..إن كان فعلًا يسعى لإسعادها سيقبل بي زوجًا لها.

***

سلمى – عمار

مخيم جباليا – ديسمبر 2013

على الرغم من أن الأمطار تتسارع لإثبات وجودها على مئذنة المسجد الكبير في المخيم إلا أنها لم تمنع عمار من إقامة حفل زفافه خلال هذا الفصل السنوي،يربط أهلُ القطاع والشاميون تحديداً فَصْلَ الشتاء بالخير؛ لهذا أراد أن تكون فاتحة خير وصلاح أحوال للمدينة التي لم تمنحه يوماً شيئًا عدا حبه لسلمى ..أما عن منزل سلمى في هذا اليوم فقد كان دافئًا جداً على خلاف ما يجري بالخارج ، دخلت أم سلمى غرفة ابنتها في الثامنة صباحاً حتى تجهز نفسها استعداداً للذهاب لصالون التجميل النسائي حتى يتم تجهيزها قبل السادسة مساءاً .

– استيقظي أيتها المتكاسلة إنه يوم زفافك ، لم أرَ عروساً تنام حتى الساعة الثامنة صباحاً ، إن نساء و فتيات العائلة بتنَّ على وصول .

- لكنني متعبة كثيراً من ليلة الحنة (قالت هذا و هي تحاول شد اللحاف إليها حتى تدفئ نفسها جيداً وتحصل على خمس دقائق إضافية من النوم) .

- سلمى، ليس لدينا المزيد من الوقت يا عزيزتي؛ يجب أن تذهبي لصالون التجميل عند التاسعة لقد سبق و حددنا موعداً مع الماشطة.. ثم إن فستان الزفاف صار معلقاً على باب خزانتك .

قفزت سلمى من السرير، قبلت رأس والدها ثم ركضت نحو المرآة حاملة بيدها فستانها الناصع البياض، وضعته على خصرها وبدأت تدور به

- أليس جميلاً يا أمي ؟

- لم أر عروساً بهذا الجمال يا صغيرتي

انحنت والدها و قامت بتقبيل رأس سلمى ومن ثم عناقها ، كان عناقاً يفيض ألماً ، صمتت سلمى قليلًا وهي تنظر إلى والدها وهلة إلى فستان زفافها من كل الزوايا وهلةً أخرى

- أمي ، هل أخون عمار إذا قمت بإخبار جمال أن هذه الليلة هي ليلة زفافي .. ؟

" لم تجبها والدها على سؤالها مدة الخمس دقائق ، السؤال العفوي هذا يحتاج رداً منطقياً "

- تستطيعين فعل ذلك ، لكن اقطعي على نفسك عهداً أن تكون هذه أخر رسالة بينكما.

- هل سيشعر بالسعادة من أجلي ..

تراخت يديها بشكل جزئي حتى بدا فستان الزفاف منهاراً لأجل ما تخلت عنه وخائراً من كل قواه بفعل نظرتها التي تعبر عن كسرة خاطر و أمل .

- بالتأكيد يا ابنتي ، أنا متأكدة من أنه سيتمنى لك الخير دوماً .

خرجت والدتها من غرفة سلمى على وقع رنة جرس المنزل بالإضافة إلى أصوات النساء القادمات و هن يصطحبن زغاريدهن ، دخلن بنات العائلة الغرفة وهن يغنين ..

وسعوا الميدان، وسعوا الميدان، والفرحة للصبيان والعز لك.. درج يا غزالي، يا رزقي وحلالي، ودرج يا غزالي يا رزقي وحلالي.. بالورد والحنة رشوا العرايس، وبالورد والحنة رشوا العرايس.. من بيت الأصايل حنا خدينا.. من بيت الأصايل.. درج يا غزالي يا رزقي وحلالي .عمت الغرفة أجواء من الضحك والفرحة ، بدأن يمازحن سلمى ويراقصنها... وكعادة عند فتيات العرب بدأن يقرصن ركبة العروس حتى يتبعنها بالزواج ، كانت قرصة أمال قوية بشكل جعل من سلمى تصرخ بشكل مرتفع من شدة الألم

- ابتعدي يا متوحشة كان الله في عون من سيتخذك زوجة له .

استعدت سلمى وبنات خالاتها للذهاب إلى صالون التجميل الموجود في المنطقة عند التاسعة .

أما على الجهة الأخرى من المخيم كان عمار وشبان العائلة يجهزون أنفسهم لحمام العريس على وقع أنغام الزفة .

بعد زفة العريس توجهوا جميعاً لقاعة الأفراح المحجوزة لهذا اليوم ، حين كشف عمار عن وجه سلمى لم يتمالك نفسه، فقبلها حتى أبعدته عنها ، قائلة :

– يكفي قلة أدب

كانت جميلة جداً تشبه الأميرات، لقد اختلطت ملامح البراءة بملامح أنثوية رقيقة ..همس في أذنها

– لم أكن أعلم أنك جميلة لهذا الحد الرهيب هل كنت تعلمين أنني مغرمٌ بك منذ مدة طويلة

– و هل تعلم أنت أن كل من بالقاعة من نساء ينظرن إلينا الآن و يتساءلن عن ماهية الأحاديث التي تدور بيننا ؟

– أين المشكلة في هذا ؟ لقد صرنا رسمياً زوجين .

– أعلم هذا ولكن فتيات العائلة ينظرن إلينا مع الابتسامات السخيفة ذاتها التي نتبادلها فيما بيننا عند إقامة أي حفل زفاف .

– إذاً لقد كنتِ مثلهن من قبل لم تتركِ أيَّ عروسين دون تعقيبات مصيرية حول ماهية الحديث الذي قد يكون يدور فيما بينهم .

– هل تريد الصراحة ! لم أستطع يوماً أن أحسن النيّة .

ضحك عمار كثيراً ، فالتفت إلى فتيات العائلة إذ بهنّ يضحكن أيضاً ، ابتسم لسلمى قائلاً : كفانا الله شر أحاديث النساء .

***

جمال

القدس – 2013

سعادة سلمى الليلة ليست من سعادتي ، إن من الصعب تقبل فكرة وجودها على ذمة رجل آخر، بل الأصعب من هذا أن أتخيله يلمسها ، يداعبها ، يناديها ب حبيبتي تُعد له الفطور تنام إلى جانبه بكل اطمئنان ، أن تختم الحكومة لهما صك زواجهما لتمسك بكلتا يديه دونما حواجز أو بنادق موجهة إلى رأسيهما ...

حطم شاشة الحاسوب..مزق الخارطة التي تحدد المسافة بين غزة والقدس ، و بات يصرخ ويذم ويشتم الحدود والاحتلال والقومية العربية ، ظنت والدته أنه قد جُنّ ، طرقت باب غرفته بشكل متكرر لكنه لم يجبها، فقط منغمس بإلقاء اللوم على نفسه،على عجزه أمسك خنجراً قديماً يعود لجده،خرج من المترل مسرعا ووالدته تبكي وتحاول إيقافه لكن بلا فائدة.

توجه جمال لأقرب حاجز من الحواجز، استغرق الأمر خمس عشرة دقيقة حتى وصل "حاجز قلنديا".

هم بالهجوم على الجنود حتى أصيبوا بحالة من الذعر.

صاح ، تأخذون مني أرضي وسلمى يا أولاد الكلب.

ثم قام بمحاولة طعن أحدهم..أُصيب أيضاً بعيارٍ مطاطي في يده ، تحلقه الجنود وقاموا بضربه ضرباً مبرحاً و هو ينزف تسبب هذا بفقده وعيه.. لفوا عينيه بعصابة سوداء اللون ثم اقتادوه إلى أحد مراكز التوقيف، أرسلوا مذكرة التوقيف لذويه..كيف يتحكم أحد ما بمصير الآخر، منذ ساعتين من الآن كان جمال حراً يغادر غرفته بشكل شبه نادر بإرادته، فقد كان يرى سلمى وطناً آخر، وطناً غير مزيفٍ لا ترسمه الحدود، إن من الشرف أن يسجن المرء لأجل وطنه ، لأجل قضيته، سلمى والقدس وفلسطين أشبه ما يقال عنهم (حباً وطواعية).

***

نرسيس

روما – 2015

في مطبخ القصر الذي تعمل به نرسيس كان العاملون والخدم يعملون بشكل دؤوب كخلية نحل حتى يتمكن هؤلاء الجنود الغامضون من إنجاح الاحتفالات الرأسمالية، اقترب فيليب من نرسيس وهمس في أذنها

هل سمعتِ قبلًا بمعركة (هرمجدون)!

تركت نرسيس ما كان بيدها من أطباق متسخة والتفتت نحو "فيليب" النادل، قائلة وهي تتشرذم:

– أجل لكن أعلم القليل، أوتعلم شيئًا؟ حين ألوك الطعام أتذكر ذاك الكتاب الذي قرأته عن نهاية العالم.

– إذًا تستطيعين القراءة..لماذا هربتِ حين أهديتك كتابًا عن الماركسية وثورة فيتنام؟

– إنها حروب عقائدية يا فيليب، ليست حروب أفكار أو مبادئ، أنا مؤمنة إيمانًا قطعيًا بهذا، حتى من يملؤون قاعات الاحتفالات عندنا كل ليلة يعلمون هذا جيدًا، ألم تنتبه قبلًا للرموز المعلقة.. بعضهم يضع رموزًا تمثل عبادة الشيطان وآخرون يضعون رمزًا مستقبليًا تمهيدًا لظهور رجل يتبعونه 70.000 من يهود أصفهان..أتريد حقًا الحديث عن معركة (هرمجدون)! لنفعل إن كنت ترغب بهذا؟

– أجل يسرني ذلك بكل تأكيد.

– حين تعلم تفاصيل المعركة يا فيليب لن تكون مسرورًا.

– أنت مخيفة هذه الليلة.

– قابلني غدًا صباحًا عند باب البدرون الذي يوجد في الحديقة الخلفية سأريك شيئًا.

– اتفقنا إذًا دعينا ننته من غسل الأطباق وترتيبها قبل أن يأتي الغول ويخصم من راتبنا القليل أصلًا.

عند الانتهاء من غسل الأطباق توجه كل من نرسيس وفيليب إلى المضاجع الخاصة بالخدم، لكن فيليب لم يستطع أن ينام جيدًا، بدأ يفكر بالشيء الذي قالت عنه نرسيس أنها ستريه إياه، ماذا عساه يكون؟ ولماذا تخبئه في البدرون الذي يقع تحت الحديقة الخلفية؟ إنه

مكان مهجور يخشى الجميع دخوله لشدة ظلمته وامتلائه بالعناكب والقوارض.

في الصباح الباكر أنهى كل من فيليب ونرسيس غسل الشراشف الفاخرة ونشرها، بصوت منخفض بدأت تهمس نرسيس لقد حان الوقت يا فيليب لكن عدني أن يكون هذا سرنا الصغير..

– أعدك بهذا. قالها فيليب متوجسًا

توجه الاثنان نحو الباب الذي تغطيه الطحالب وفتحاه، أشعلت نرسيس مصباحًا زيتيًّا كان بحوزتها.. دخلا المكان ومن خلال إشارة ما كانت مرسومة على الأرض فتحت نرسيس ممرًّا ضيقًا، قالت لفيليب نوشك أن نصل. خاف الآخر من الدخول لكنها أصرت عليه..

زحف للداخل وتبعته نرسيس ناولته المصباح وبدأ يتفقد المكان.. إنه مستطيل الشكل، مكوّن من دعائم خشبية قديمة يسندها الفولاذ حتى لا تنهار، وخالٍ من الشبكات التي تدل على وجود عناكب، بل إن المكان خال من الغبار أيضًا، بدأ يتمتم بصوت منخفض:

– نرسيس أنت تأتين إلى هنا دائمًا.

– أجل أفعل هذا طوال الوقت.

وصلا إلى آخر الممر الضيق وإذ بمكتبة مليئة بكمٍّ هائل من الكتب القديمة والرفوف المتهاوية والمخطوطات المختلفة التي تحوي رموزًا كتلك التي يتخذها الأغنياء شعارات لهم في احتفالاتهم.

– ما رأيك الآن؟!

– كيف اكتشفت المكان؟

– ستقول أنني فتاة مجنونة حين أخبرك كيف، أُفضل الاحتفاظ بالطريق لنفسي.

– لا، أنا أصر، لن أتهمك بالجنون.

– إذًا.. إنها نبوءة منحتها غجرية تُدعى أوركيدا لوالدتي تخبرها أن لي رفيقة في المنام ستتسبب بقطع رأسي يومًا ما، لكنني لا أصدقها، فهي حتى الآن تدلني على أشياء ثمينة كهذه المكتبة مثلًا...اقتادتني إلى هنا قبل عامين من الآن.

– لحظة، هل تتكلمين بجدية؟!

– أرأيت؟! لم تصدقني، انسَ الأمر.

– لا، لا، أنا أصدقك تمامًا، لكن علينا أن نتناقش بالأمر..قبل هذا أتسمحين لي أن أشاطرك القراءة؟

– بكل تأكيد هذا يسرني.

صعدت على سلم قديم، من ثم تناولت كتابًا معنونًا تحت اسم (نهاية العالم)، غلاف الكتاب يحوي رمزًا يتكون من مثلث تتوسطه عين واحدة..

– هاكَ اقرأ هذا وعند الانتهاء منه سأمنحك كتابًا يتحدث عن نفس الموضوعات بشكلٍ مغاير.. هذا الكتاب فيه نبوءات من التوراة والإنجيل..هناك كتاب آخر يتحدث بتفاسير من كتاب المسلمين القرآن ونصوص تُدعى أحاديث عن رسول يُدعى محمدًا.

– أتؤمنين بما تقرئينه؟!

– دائمًا.. لا أنهي كتابًا حتى أشاطره أفكاري وأحلل المواقف التي تحدث،خاصة تلك الكتب التي تحوي تفاسير المخطوطات الدينية، هكذا أؤمن بالدراسات وكتب الله على اختلافها.

– غامضة هذا ما أطلقوه عليك، والآن تأكّدت من كلامهم، لا أحد يعلم عنك شيئًا حقًا يا نرسيس.

– أنت تعلم سري العظيم، أرجوك احتفظ به لا تخبره أحدًا.

– لقد وعدتك لا داعي للقلق، لكن دعينا الآن نخرج، أخاف أن يبحث عنا الغول ولا يجدنا.

استيقظت جميلة وقد تأخرت عن محاضرتها..إنها الساعة العاشرة صباحًا،كيف لم أستيقظ على صوت المنبه!يا الهي!سيوبخني البروفيسور جاد كثيرًا هذه المرة، إنها أهم محاضراته.

سارة

باريس - 1982

كانت ليلة طويلة لنا في شارع الشانزلزيه،ليلة باردة دافئة، أخبرتني أنك حضرت لي مفاجآت، لكنك لن تخبرني ما هي إلا حين نقترب، وكلما مشينا علت أصوات الموسيقى وكنت أزداد إصرارًا عليك حتى تخبرني إلى أين تأخذني لكنك ما زلت ترفض، تضع كف يدك على فمي وتقول: "بس ولي رح نوصل"..

حين وصلنا قلت لي بتعرفي **Lara Fabian**؟ كان ردي أنني أقطن في مدينة باريس منذ ما يقارب الأعوام السبعة، ولا أعرف تلك ال **Lara Fabian**! من عقلك؟ ابتسمتَ فعانقتني وأخبرتني حينها أنك حصلت على تذكرتين لحضور الحفل الذي تحييه، لكنني رفضت الدخول معك، فبدت علامات الحزن على وجهك.. نظرتُ جيدًا في عينيك وأنت تمسك يدي بقوة..

– مرقص ، خدني أحضر حفلة لمارسيل.. بربك.

– انتن الفلسطينيات تكرهن الرقي و تجاهنه، ما المُقيت في حضور حفلة ل **Lara Fabian** أعني أنها **Lara** هل تدركين هذا !! ثم ماذا سأفعل بهذه التذاكر بعد أن قمت بتكبد عناء شرائها من السوق السوداء ..

– لا أدري ، لا أريد الدخول تصرف بها .

– كما تشائين .

– بكرهك.

– وأنا بكرهك موت فيكِ.

بدأ يتذكر مُرقص تفاصيل تلك الليلة جيدًا كأنها البارحة، كانت الليلة التي طلب بها يد زميلته الجامعية المسلمة للزواج، بعد أن عاشا معًا قصة حب جعلته ينسى أنهما ينتميان إلى عقيدتين مختلفتين، ومع أن أهلها كانوا يعلمون بعلاقتهم هذه فإن رفض الزواج من قبلهم حيّر مرقص، وجعله يعزف عن الزواج طوال حياته، توقف مرقص عن قراءة رسائلهم القديمة، ووضع على فخذه اليمنى رسالة "سعاد" الأخيرة التي تذكر بها تفاصيل آخر ليلة جمعتهما معًا، ذكرت سعاد كل هذه التفاصيل بعد أن صار عمرها يتجاوز الستين عامًا، مما آلم قلب مرقص وجعله يعتقد أنها عاشت طوال تلك السنوات مع زوج

لا تحبه، وأنجبت منه ابنة جميلة تشبهها تقطن في ذات الحي الذي يعيش فيه السيد.

كانت هذه الرسالة وغيرها من الرسائل والمذكرات والصور مخبأة في صندوق قديم مليء بالزخارف المحفورة بدقة وعناية واحترافية عالية، نام مرقص وكأس النبيذ الأحمر المعتق الذي يصنعه في بدرون منزله تتدلى من يده، وبدا كأنه يهذي بكلمات غير متناسقة، كانت سارة تخطط للذهاب إلى المطبخ كي تحظى بكوب ماء بعد كابوس كان قد راودها، وبعد أن استجمعت قواها، ولعنت عقلها المشغول ألف مرة والذي نسي تذكيرها أن تملأ إناء الماء في غرفتها بسبب انهماكها في أعمال تنظيف المنزل والدروس، نزلت الدرج بخفة خوفًا من أن تزعج السيد مرقص بخطواتها، فانتبهت أن مدفأة الحطب الموجودة في مكتبة السيد مشتعلة والباب موارب، نظرت من المنطقة المفتوحة في الباب فوجدت أن سيدها نائم بوضعية مزعجة قد تتسبب في موته بسبب ميلان رقبته إلى الجانب الأيمن؛ مما قد يتسبب في قطع النفس، فتحت الباب ودخلت حتى توقظه لكي يذهب إلى سريره، فلم تتمالك نفسها عن اختلاس النظر إلى الصندوق المفتوح وإلى الرسالة الموجودة على فخذه، لطالما علمت سارة أن السيد يخفي سرًّا ما، وبسبب خوفها من سؤاله قررت أن ترى ما الذي يوجد داخل الصندوق، قرأت بداية تلك الرسالة التي اعتقدت لوهلة أنها مميزة،

وبعد أن انتهت منها حملت دفتر المذكرات وبدأت تقرؤه بطريقة رؤوس الأقلام، فهمت الآن أن السيد يشعر بالضياع، وأن الأديان لم تنصفه والسيدة سعاد؛ مما جعلها تشعر بالحزن الشديد، أعادت سارة كل شيء إلى مكانه وأيقظت السيد برقة طالبة منه التوجه إلى مضجعه، لكن النوم كان قد تثاقل عليه بسبب إفراطه بالشرب، ومع إصرارها عليه استيقظ نوعًا ما، اندفعت نحوه كي تساعده على الصعود إلى غرفته من خلال الاتكاء على جسدها الهزيل.

***

فيليب

روما – 2015

غرفة الخدم الخاصة بالذكور تحتوي على إحدى وعشرين سريرًا بطابقين، الشراشف ناصعة البياض، لكن هذا لا يمنع فكرة وجود الصدأ الذي يأكل أقدام الأسرة كافة، وعلى السرير الرابع وعلى الطابق الثاني من السرير تحديدًا ينغمس فيليب بقراءة النسخة النصرانية اليهودية من كتاب نهاية العالم كل ليلة بعد انتهاء العمل، الكثير من الأحداث التي تظن أنها خيالية للوهلة الأولى إن كنت ملحدًا ولا تعلم شيئًا عن النصوص الدينية سواء في أيّ كتاب سماوي..تخيفك وتجعلك تعود لفطرتك الأولى ألا وهي فطرة التوحيد.

يُذكر بالكتاب أن المعركة العظيمة (هرمجدون) ستتم خلال أربعة أيام فقط..وأن هناك كائنًا ما سيظهر بعد أن يحكم دين التوحيد

الأرض ليجعل من البعض مرة أخرى إما عبدة للثالوث المقدس أو عبدة للشيطان.

الكثير من الأحداث بدأت تُرهق تفكير فيليب منها أن الرب جعل الغيب غيبًا، فلماذا تتحدث هذه النبوءات عنه، بدأ يضع أسئلة عن المعركة حتى يصل أخيرًا لاستنتاج منطقي إما يدعم إيمانه أو يغير عقيدته ..

أنهى فيليب الكتاب بشكلٍ سريع ثم عاد لقراءته بشكل متروٍّ.. تذكر كلمات نرسيس عن التحليلات الخاصة بها، فقرر هو الآخر أن يربط أفكاره والأحداث التي تصادفه بالآنف ذكره من خلال النصوص الدينية.

عند الفصل الأول من الكتاب استصعب عليه فهم تفسيرات النبوءات حول الهرم والعين التي تتوسطه،كيف تتحدث عقيدة الثالوث المقدس أن المسيح مات مصلوبًا من ثم يعود ليقود جيوشًا معظمها من اليهود؟ كيف يمتلك موهبة إحياء الموتى وكان عاجزًا عن إنقاذ نفسه من الصلب؟ هل يعقل أن يتطاول البشر على ابن الرب؟

ضرب بكف يده رأسه.."فيليب بدأت تكفر، توقف عن تحليلاتك الآن".. بدأ يحدث نفسه ومع هذا لم يتوقف عقله عن التحليلات التي بدأ يقتنع هو نفسه بأنها منطقية..

بعد ليلة حافلة بالتفكير والأرق قرر فيليب أن ينزل مرة أخرى إلى البدرون لكن دون أن يصحب نرسيس معه، يجب أن أقرأ النسخة الإسلامية من الكتاب،ربما أجد حينها حلولًا بديهية لأسئلتي الكثيرة.. يجب أن يكون عقلي مطواعًا.. قال فيليب في نفسه إنه ولد على ديانة والديه، وأن توجهه الماركسي لا يتوافق مع هذه الديانة..منذ زمن بعيد لم يؤدِ أي صلاة للرب لم يزر الكنيسة، ولم يعد يرغب بهذا أصلًا، يوشك فيليب أن يصبح ملحدًا رسميًّا، لكن بعد قراءته للكتاب بدأت توجهاته تتغير وتصبح أكثر قابلية للتفاعل مع النصوص الربانية التي لا شان للبشرية بها، ومع هذا لم يمنح جوارحه أي رد نهائي بعد.

عند الخامسة مساءً استطاع التنصل من المطبخ قبل بداية الاحتفال..كان حريصًا على ألا يراه أحد خاصة نرسيس صاحبة السر، بعد دخوله السرداب الذي يصل البدرون بالمكتبة بحث كثيرًا عن كتاب نهاية العالم المدون بعقيدة أخرى لم يجده حتى التفت خلفه ليرى خيالًا لشخص آخر في المكتبة..خاف كثيرًا وحاول أن يشغل نفسه وأن يطمئنها، لكنه فشل في ذلك، فقرر الالتفات ليجد شخصًا قبيحًا جدًّا يحمل بين يديه عصا مصنوعة من العظام تقريبًا أو العاج مليئة بالرسومات والرموز الغريبة منها رمز نجمة داود السداسية بشكلٍ بارز.

كان شخصًا طويلًا جدًّا تعجز عن تحديد عمره، كثير التجاعيد، شعره أشعث له بشرة توحي بأنه مصاب بمرض الجذام، ولكنه ليس

كذلك، عيناه ابيضتا حين نظر إليه فيليب أيضًا، كلتا كفيه مكونتان من ست أصابع لا خمس..

صرخ فيه..لقد خنت الأمانة يا فيليب ودخلت هنا مستبيحًا حرمتي وحرمة منزلي.

– أن.. أنا آسف لم أكن أعلم أن أحدًا ما يقطن هنا، نرسيس لما تخبرني بهذا.

أجابه خائفًا متلعثمًا..

حاول فيليب أن يُدرك ماهية الكائن الموجود أمامه، لكنه لم يستطع ذلك، ربما الفزع الشديد المسيطر عليه كان السبب، أو ربما أنه لم ير مثيلًا له من قبل، كان يجب عليه أن يخلص نفسه من هذا الموقف بأي وسيلة كانت، والوسيلة المتاحة أمامه أن يتفاعل معه فقط.

– حتى تخرج من هنا عليك أن توافق على شروطي التي سأتلوها عليك وإلا لن تخرج حيًا وسأكون مسرورًا لإضافة رقم جديد لشجرتي.

– شروطك؟

– نرسيس حين دخلت هنا قطعت عهدًا لتلميذتي بأن تُبقي المكان سرًّا لكنها خانت السر وأشركتك في هذا..

خرجت من خلف الكائن فتاة صغيرة عيناها خاليتان تمامًا من اللون الأبيض،يداها مغلولتان لعنقها، والسلاسل متصلة بعصا الكائن.

- هذه تلميذتي "زاهيرا" رفيقة نرسيس الليلية.

- تلميذتك! لماذا هي مكبّلة إذًا؟! أنت تجبرها على فعل ما تحتاجه من باب السيطرة لا التعلم.

- أنت تُشعرني بالغضب، كن مطيعًا يا ماركسي، وتذكر جيدًا أن مصيرك سيكون مماثلًا لمصير نرسيس إن كشفت سر المكتبة القديمة لشخص جديد..عليك الآن أن توقع عقدًا معي وعليه تخرج من المكتبة..وإن لم تنفذ شروطي خلال أسبوعين مما تعدون ستلقى حتفك.

شعر فيليب بحجم الورطة التي وضعته فيها نرسيس..تمنى لو أنه لم يحاورها من الأساس:

- هاتِ شروطك.

- عليك أن تقطع رأس نرسيس لأنها أخلفت الميثاق من ثم قم بإحضارها لي.

- ماذا! هل جُننت أنا لن أفعل هذا قطعيًا لا.

- إذًا عليك أنت أن تكون القربان ليس أمامك إلا هذان الخياران.. أنت أو نرسيس وعليك أن تمنحني جوابًا واحدًا الآن.

- بلا تردد أجابه بالموافقة.

- أسبوعان فقط إن لم تحضر لي رأس نرسيس بدمائها سأجعلك أضحيتي، ولا تحاول الهرب إن كنت في أقاصي الأرض سأحضرك بلمح البصر..ثم اختفى.

خرج فيليب من السرداب بسرعة فائقة وبدأ يفكر بطريقة يحضر فيها رأس نرسيس للكائن الذي لم يرَ له مثيلًا قبلًا.

***

أحمد

قطاع غزة – 2013

استطاعت التكنولوجيا منذ الثمانينات أن تقرب البعيد، وتوضح المجهول، وأن تفتح أفاقًا و سبلًا جديدة للعشاق، كان وقت أحمد وجميلة ينصب في قالب رسائل الماسنجر.. لقد بزغ الحب في قلبيهما عن طريق دردشة إلكترونية لا توضح حقيقة وتعابير من هو أمامك، تحرمك من لذة المحاولة فيما إن كان الشخص الذي يحادثك صادقًا أم مقلدًا ويعاني هستيريا ما، في إحدى المحادثات الطويلة التي كانت تجري بين هذين الثنائي وقعت جميلة في فخ أحمد المحكم والمدروس.

– نتوجه إلى منزلي نتحدث قليلًا فقط من ثم ترحلين صدقيني لن أؤذيك، ألا تثقين بي!

– بلى، أثق بك لكن لا أثق بغريزتك البشرية، قد تنتشي على حين غِرة.

- صدقيني يا جميلة لن أفعل، أعدك بهذا، أنا بحاجة ماسة إلى جلسة تجمعنا بعيدًا عن عيون الناس، أتريدين أن تكثر التفاسير والانتقادات والأسوأ من هذا أن يعلم والدك بأننا خرجنا معًا مجددًا للجلوس في مكان عام.

- أنا مترددة، هذا مخالف للعرف.. نجتمع معًا في منزلٍ خالٍ إلا منا.. لا، لا، أرفض الفكرة تمامًا

- إذًا أنتِ لا تثقين بي كما قلت سابقًا..

- بل أثق بك.. ولكن...

- بدون لكن إن لم تحضري منزلي فأنت تحدثين فجوة كبيرة بعلاقتنا سببها انعدام الثقة.

- حسنًا غدًا عند الحادية عشرة صباحًا.

- أنا سعيد جدًا بثقتك هذه يا جميلة..أعني لقد وافقتِ بعد إلحاحٍ شديد لكن لا بأس، المهم أننا سنرى بعضنا البعض غدًا.

- أجل، أحتاج للخلود إلى النوم الآن.. تصبح على خير.

- غدًا عند الحادية عشرة، تلاقي خيرًا.

لقد وضع جميلة أخيرًا تحت الأمر الواقع فانساقت لرغبته بأن يكونا معًا في منزله وحدهما..

ما حدث عند الحادية عشرة والنصف أن أحمد كان يخطط منذ بداية علاقته بجميلة أن يسلب منها شيئًا يعايرها به حين تستفزه أو

حين تقتاده لحوارٍ لا يبرع فيه، وحتى إنه يحتاج وبشدة أن يضيف فتاة بريئة جديدة لقائمة الفتيات اللاتي اصطحبهن إلى مترله؛ليباهي رفقاءه بهذه القائمة التي تزداد طولًا حين يتعرف على فتاةٍ جديدة يوهمها أنه يحبها..

حين دخلت جميلة المترل كانت خائفة جدًّا لكنه كان يطمئنها بعبارات الثقة والكلام المعسول، يعلم أنها بحاجة لصدرٍ حنون خاصة أن والدها متوفاة، ومن هنا استسلمت له كليًّا حضر بعض القهوة، ثم بدأ يغازلها، يداعبها، يلمسها على الأريكة التي غالبًا ما كان يجلس عليها حين يراسلها عبر الإنترنت، حاولت إبعاده لكنها فشلت، كان زير نساء، أما عنها فقد أخذت قبلتها الأولى من شفتين لطالما مرتا على شفاه الكثيرات..تصدر منها همهمة خوفٍ لا شهوة حتى بدأت تبكي وهو غير مبالٍ فقط يجبرها ألا تصدر صوتًا عاليًا في النحيب، بدأ يعريها من ملابسها، يجردها من كل شيء، حتى وصل إلى آخر قطعة ملابس، فتوقف عندها خوفًا من أن تتطور الأمور فيتزوجها مرغمًا أخيرًا، هكذا كان ينظر أحمد إلى الحب من ناحية جسدية.

كيف يخاف ويخشى أن تتطور الأمور من ثم يصطحب الفتاة لمترله برغبتها حتى يتخلص من مشاعره اتجاهها، بالمحصلة ينظر إلى البريئات على أنهن ساقطات..يبدأ غالبًا بأن المحرم بالحب مباح فينتهي بأن الحرام حرام للفتاة، أما هو فيفعل ما يشاء، يرى أن الحساب والجزاء من المجتمع لا من الرب..فما دام المجتمع لا يحاسب ذكوره على

الشبق أو الشهوة يبقى هو في الحاشية السليمة من القوانين التي تحكمها العادات والتقاليد.

هذا الحدث الأبرز الذي يعاتب ضمير أحمد مذ ترك جميلة، لم يشعر بالذنب تجاه الأخريات، أما بالنسبة لجميلة الصغيرة فهو عاجز عن الهناء مدة العامين والنصف، يتضرع كثيرًا إلى الله عله يغفر له ومع هذا يفشل أن يكون سعيدًا ما دامت جميلة لم تسامحه، حاول استجداء عطفها عدة مرات لكنها كانت تصده وتخبره بأنها لن تسامحه ما حييت.

– هل تظن أنك حين تتزوج بغيري ستنساني، ستنسى ما فعلته بي؟!

– أنتِ آتيتي لي برغبة منك، لم أرغمك على شيء.

– تذكر يا أحمد أن لك أمًّا أرملة في بيروت ترعى أختك العشرينية، إن الأيام دالت لك الآن يا عزيزي، لكنها ستدول يومًا آخر لغيرك، فهناك قاعدة مطردة تحكم هذا النظام الكوني، (وتلك الأيام نداولها بين الناس).

– أجل أعلم هذا، وكما تدين تُدان.. لا أهتم يا جميلة، كل ما يهمني الآن أن ترحلي من حياتي فقد مللت منك، أنا لا أفي بوعودي، ألم يخبرك الجميع؟ ومع هذا جازفتِ وضحيتِ، أنا لم أطلب منك هذا.. أما بالنسبة لما حدث فالله غفور رحيم.

- أجل، الله شديد العقاب.

خيبة أمل لطمت خد جميلة، تعرفت إلى حملٍ وديع أحبته، منحته ثقتها حتى خلع ثوب العفة أخيرًا، وبرزت أنياب الذئب المتكور تحت رداء من الصوف الناعم.

***

سلمى – عمار

مخيم جباليا – 2014

بعد أن انصهرت سلمى في حياتها الزوجية، وبدأت تنسى بشكل غير مطلق ما حلّ معها في الماضي، غمرت عمار بالسعادة التي كان يبحث عنها منذ اختيارها زوجة له، وكأسلوب حياة عند الفلسطينيين النازحين الذين يقطنون المخيمات والقطاع بشكل عام لم يخلُ حوارهما من الموضوع ذاته الذي لم ينتهِ الخوض به منذ ثمانية أعوام "التيار الكهربائي"، كان الحديث الروتيني في كل جلسة، تضع رأسها على صدره مداعباً شعرها ممازحاً إياها بشكل لطيف

– عمار، أليس من المفترض أن يكون التيار الكهربائي مقطوعاً الآن ؟

– هذا من المفترض ، لكن أبا محمد جارنا حين ينقطع التيار الكهربائي عنه ييأتي عبر خطوطنا ، و حين ينقطع عبر خطوطنا يأتي عبر خطوطه، معادلة بسيطة حللنا من خلالها الأزمة " تبادل كهربائي.

- باستهتار "يا حبيبي كل شي عنا بالسرقة، المي، الكهربا، حتى الحب ! بتعرف شي وأنا كمان نفسي أسرقك و نطير "

"بدأ عمار يماشيها ويتفاعل مع أفكارها غير المنطقية بالنسبة لأهالي القطاع على الأقل،كانت فكرة الطيران والسفر من أعز الأحلام التي تراود الشخص الذي يقطن في هذه البقعة من العالم ومع أن حق السفر من الحقوق الطبيعية التي كفلتها القوانين والأعراف الدولية إلا أنها كانت حقوقًا ليست من ضمن الحقوق الممنوحة للفرد الفلسطيني، تنهد عمار وسأل سلمى عن الأماكن التي تحلم بالطيران معه إليها، أجابت سلمى وبلا تردد أنها تريد الطيران إلى مدينة "القدس"، صمتت فأضافت بشيء من الحزن وإلى "باريس" و "روما " و "القاهرة"، كل..كل مكان يا عمار وآه " جوهانسبيرغ " أتمنى زيارتها

- اسمها لوحده يحتاج خمس جوازات سفر، جوها...ماذا ما اسمها !

- ضحكت سلمى ، جوهانسبيرغ ، من ثم نعود

- حقاً تريدين العودة ؟؟

- ليس لنا إلّاها صدقني

نهضت عن صدره، وأفلتت يدها ثم بدأت تمسح على وجهه وذقنه غير الحليقة

- عمار لا تستشهد ، أغار عليك من الحور العين

- تغارين علي في الدنيا و تلصقين بي هذه الغيرة في آخرتنا ، الرحمة يا صغيرتي ستكونين سيدة الحور في جنتي .

- ماذا هل هناك أخريات ؟

- في الجنة كل رجل بتزوج من إثنيين وسبعون حورية ، و هذا هو السبب الذي دفعني لوعدك بعدم الزواج من أخرى .

غضبت سلمى من أسلوب زوجها الاستفزازي وأخبرته أنه غير ماهر في اجتذاب أطراف الحديث معها ، كما أن لغته صماء كالحجارة ، لكنه كان صامتاً و يبتسم بشيء من الخبث والاطمئنان ما أثار حفيظتها حتى طلبت منه أخيراً أن يوصلها إلى مترل أهلها، وقف عمار حيث تقف وعانقها، ثم مسح على رأسها وهو يقبل جبينها يرجوها أن قمدأ، من ثم أخبرها أنه الآن كل عائلتها.

- سلمى ، هل تعلمين أننا يجب أن نطلق على كوكبنا اسم المريخ لا الأرض ؟

- لماذا ؟

- إن كوكب الأرض بقمر واحد لكن المريخ بقمرين

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أنك تتحلين بقدرٍ كبير من الغباء تحتاجين لكل استعارة مكنية شرح مفصل

- عمار هل وصلت إلى أخر قدراتك الرومانسية " بغضب " .

- سلمى هيك أخرك بالفهم؟

- أنا ذكية بس أنت شو فهمك، أنا بس بكره الدراسة لهيك ما بفهم بالاستعارات المكنية، وأنا أصلًا نعسانة بدي أنام.

- موشح جادك الغيث إللي بتحكيه مش مبرر على فكرة، اتصلي على أي وحدة من صحباتك الحلوات أحكي لها هاد الغزل، ورح تفهمه بسرعة.

- أنا أصلًا فهمته بس كنت بتهبل عليك.

- لا قصة غيرة هيك مش أكثر.

***

جاد

روما – 2015

العادة الصباحية في روما منذ عامين أن تطرق جميلة عند التاسعة صباحًا مكتب والدها في الغربة البروفيسور جاد، هذا الصباح استيقظت بحيوية غير مألوفة وكأنها تنتظر حدثًا مميزًا، طرقت مكتب جاد فأذن لها بالدخول، رأته يجلس على الأريكة بدلًا من المكتب كالعادة ويمسح دموعًا ليست بدموع الحزن إطلاقا، تركت الكتب التي حملتها من المكتبة قبل يومين من هذه اللحظة على الطاولة المستديرة الصغيرة التي تقع بجانب الباب واندفعت نحوه:

– بروفيسور جاد، ما الأمر؟

– سيخرج سمير من السجن يا جميلة، أنا سعيد جدًّا لهذا الخبر، أخيرًا سأتمكن من رؤيته،هل شاب شعره! وانحنى ظهره! وشاخت ملامحه؟!مر اثنان وثلاثون عامًا.. لم أنم ليلة الأمس من كثرة التفكير.. ابني الآن يبلغ من العمر ثمانية وأربعين عامًا تصوري هذا! ودعته على حين عجل طفلًا والآن سأستقبله شيخًا يقارب الخمسين.

– بروفسور، أنت كبير بالسن جدًّا إذًا!

– أجل يا جميلة أنا أبلغ من العمر ثمانية وستين عامًا.

– عمرك من عمر نكبتنا يا بروفسور.

– الملافظ سعد يا جميلة، ومع هيك صح عمري من عمر النكبة.

– لقد استيقظت وأنا أشعر بالسعادة اليوم،إنها طاقة إيجابية مفرطة سامحني، لكن هل كنت واعيًا إلى ما يدور حولك حين خرجت من البلاد؟

– لا، أنا لم أخرج يا جميلة في عام النكبة، لقد خرجت حين بدأت النكسة، خرج أهلي ومعظم سكان القدس الشرقيين.

– كان عدد الصهاينة في القدس الشرقية يساوي (صفر) حتى ال 67 وعند حدوث النكسة لم يتبقَّ لنا من أراضي القدس إلا ما يقارب نسبته ال 13%.

– أعلم هذا يا جميلة،لربما كانت الحقيقة الوحيدة التي أدركها بعد اثنين وثلاثين عامًا.

أخرج جاد صورة قديمة لمنطقته السكنية ليست بجودة تصوير عالية الدقة لكنها تفي بالغرض الذي التقطت لأجله.

– هذه الصورة يا جميلة تعذبني كلما رأيتها، هذا علم بلادنا إلى جانبه خيباتنا وخطيئتنا إلى الأسفل منه شعاراتنا الحزبية، إلى جانبها صورة فلان واسمه، هذا هو المفهوم الخانق للإخلاص الوطني! نخلص للقادة، نتهالك على السلطة التي مُنحها فيمثل بالنهاية واسطة!

قبل أن نتحدث عن التحرير وعن سبب حرب بيروت ومجزرة صبرا وشاتيلا في ذات العام علينا أن نسأل أنفسنا دائمًا وأبدًا: لماذا! ما السبب؟! لَم نحن؟!

– دعني أُجبْك، الإنسان الفلسطيني يا بروفسور مكتوب عليه الشقا كل مكان بيروح عليه، بتفكر نكبتنا سرقة بلادنا وبس! غلطان، إحنا نكبتنا إخواتنا الاثنين وشرين.. قمة العار ما حدث في الحربين المنصرمتين على القطاع! وما يحدث للقطاع منذ ستة أعوام، وما يحدث لأهالي مخيم اليرموك، المهالك الجماعية بحق مسلمي بورما، ووسط أفريقيا.. تختلف الطرق التي تقام بها المجازر وهدفها بالنهاية واحد الاستعداد للمعركة القبل أخيرة، إنها هرمجدون..

– هرمجدون! لم أسمع بها قبلًا

– ولا أنا، أخبرتني عنها نرسيس واسترسلت في البحث عبر الإنترنت،جالت بأربع مكتباتٍ عربية خلال الأسبوعين المنصرمين حتى أنني لم أنم الليلة الماضية!

– نرسيس.. من تكون! وما هذه المعركة أصلًا!

– ربما علي أن أحتفظ بهذا الأمر لنفسي بروفيسور.

– لا بأس.

***

سارة

باريس – 1982

كان لا بد لي من الزواج بامرأة باستطاعتها لفّ السجائر، ربما لن أقارنها حينها بالأبقار التي تقطن الزريبة على الأقل ستأكل بمجهودها..

لا أدري بماذا يفكر الزوج الذي قرر والدي فجأة وأنا أبلغ من العمر أربعة عشر عامًا وشهرًا يتيمًا أن يزفني عروسًا إليه، لم تبلغ سن الرشد أو بالأحرى لم تتعرف إلى "الخالة وردة" الاسم الذي تطلقه نساء قريتنا البائسات عليها؛ قرر أن دوره قد انتهى، أمر والدتي القليلة الحديث أن تعلمني طريقة طهو الأكلات التقليدية حتى أطبخها لزوجي الطاعن في السن كأبي؛ غير أن أبي كان قادرًا على الإنجاب وليته لم يكن، هو لا يعلم، وكذلك جميع الرجال هنا، إننا نعاملهم بإحسان من باب الشفقة، كذلك لا يعلم آيٌّ منهم أن وجود الشاب

الوسيم قد يخلط في الأنساب مستقبلًا،وأن لعنة ما ستحل على النساء الجامحات والرجال الذين يعتقدون أن الحب غير مطلوب عند استحضار حياة جديدة على شكل جنين إلى هذا المكان المدنس، لن أحذو حذوهم أيها الرب،أنت تعلم أن قضاء خمسة أعوام وقبلها أربعة عشر عامًا بلا حب هو أمر يبعث على القنوط، وتعلم أيضًا أن الجثة الهامدة والكائن الزومبي الذي يُدعى زوجي ليس أول شخص قام بمداعبة جسدي عنوة، فأبي كان يفعل، وصاحب الدكان الذي كان ينسى أن يغلق أزرار بنطاله بعد مغادرة فتيات القرية الصغيرات مُحملات بالحلوى غرفة التخزين الخاصة ببضائعه كان يفعل، لا تسامحهم، أرجوك؛ فأنا لن أفعل..

بعد أن أوصلت سارة السيد إلى سريره عادت للأسفل حتى تعاود قراءة إحدى الرسائل الموجودة في الصندوق، والتي كُتب عليها: "إلى ابنتي سارة حين تكبر"، وعلى أمل ألا يترل السيد من سريره بدأت تمشي نحو الرسالة بلهفة شديدة.. يبدو أن أحدًا لم يفتح الغلاف، من ثم قامت بفتحه بسرعة،كانت الرسالة تحمل معها صورة لامرأة صغيرة السن جميلة، لكن الإرهاق كان يبدو على وجهها، كأنه من ملامحها الأصلية، قلبت الصورة لتقرأ ما كتب عليها:

"عزيزتي سارة، لقد خنت زوجي وأنجبتك رغمًا عن ظروفه الطبيعية التي تمنعه من الإنجاب، لقد تعلمتُ كيفية القراءة والكتابة على يد والدتي الصامتة التي كانت تخفي قدرتها هذه عن والدي؛ كما

أمرتني أن أخفي قدرتي عن زوجي، وإني قد وهبتك للسيد قبل أن يفتك المرض بجسدي؛ حتى يعلمك كل الذي رغبتُ بتعليمك إياه، لكن القدر الذي لم يكن منصفًا معي يومًا وقف بوجهنا، أرجوك سامحني..

ملاحظة لقد اختزلت ما حدث معي في قريتي قبل أن أحمل بك من الشاب الذي أحببته وأحبني، لكنه تخلى عني حين علم أنني حامل بك، في أسطر الرسالة الموجودة مع الصورة، لقد كانت هذه الرسالة كلمات كتبتها للرب لكنك تستحقين معرفة الحقيقة أيضًا..

أمك المحبة"

***

أُصيبت سارة بالاكتئاب الحاد لدى معرفتها ما حدث لوالدتها، لقد ظل السيد يحاول إخفاء الواقع عنها بشكل مزعج، لقد علمت كل ما كانت يجب أن تعلمه، لكن الوقت كان مبكرًا على كل هذا الحزن،على الرغم من الدروس الكثيرة في العقائد ومهارات الحياة التي أعطى السيد (سارة) إياها منذ أن كانت تبلغ ستة أعوام، وطرقه الغريبة في إيصال المعلومات إلى عقلها الصغير فإنها لم تحتمل فكرة خيانة أمها لزوجها حتى تنجبها، بدأت تشعر بالسخط الشديد لأنها بالأساس لا تشع بالسعادة أو الراحة، أعادت سارة الصورة والرسالة إلى الظرف من ثم جمعت كل الرسائل إلى الصندوق مجددًا،عرفت الآن ما سبب الحاد السيد بكل الأديان، وقد كان السبب امرأة، وعرفت

لماذا هي الآن في منزل غير منزلها مع رجل لا يمت لها بصلة قرابة، ليس سوى متبرع عجوز يحتاج إلى من يؤنس وحدته في مقابل إطعامي وإسكاني وتعليمي الدروس المفيدة المجانية، لقد كان السيد كريمًا وطيبًا معي جدًّا، لكن هذا لا يمنع أنني كنت أحتاج إلى معرفة شعور الأولاد الذين يعيشون في ظل والديهم في منزل دافئ صغير..



* يحكون في بلادي، يحكون في شجن عن صاحبي الذي مضى وعاد في كفن.



سلمى – عمار

حرب قطاع غزة – 2014

لم أرغب أن يأتي اليوم الذي أسمع فيه نبأ رحيله قبل رحيلي، لم أحتج لمثل هذه الهزة بعد.

عقدت له الكوفية أودعته بارودته منحته ياسمينة رقيقة يضعها في جيبه، كتابًا يذكر الله فيه كلما ضاقت وحين الفرج، قال لي وأنا أرتب ياقة بذلته العسكرية:

- بتزفيني لغيرك ما أصبرك!

الهمرت دموعي حينها، ما كان لي إلا أن احتضنته بشدة:

- أرجوك لا تذهب، لا تفجعني بغيابك.

- سلمى، اطلعي بعيوني، الوطن أغلى بكثير من سرير يقبع تحت أصوات الطائرات الحربية، لا أعدك أن أعود، قبّل رأسها بقوة حتى أحست بحرارة أنفاسه - بس بوعدك تكوني ست الكل في جنتي.

أتدري يا عمار! عناقنا الأخير كان يشبه السماء؛ فالقمر حين يكتمل في ليلة المنتصف تبدأ كل ليلة من الليالي التي تليه تأخذ جزءاً من اكتماله حتى يختفي كليًّا أخيرًا.

هكذا كان عناقنا الأخير، اكتمل جدًّا حتى بدأ يختفي أثره في كل ليلة من ليالي الانتظار الطويلة التي تزنرها القذائف،الرشاشات الثقيلة، الصواريخ الحربية، الفسفور الأبيض، ودعواتنا التي تخترق لب كل هذه السخافات لتصل الرب ترجوه أن يجمع قلوبًا عاشقة وأن يحمي قلوبًا أخرى..ما أجمل هذه الأرض! فكل الأسباب التي تأخذك مني أبغضها إلا فلسطين..تأخذ منا الكثير وتزداد في الهوى عند كل فقدٍ مثقالًا!

لي عزاء وحيد يا عمار أن يأتي شهر جديد ليتوقف عناقنا عند بدر المنتصف مرة أخرى دون الحاجة لخوض مرحلة محاق السماء في النهاية، أنت لي ولقاؤك حتمي إن لم يكن في حياتنا المؤقتة فاللقاء الأبدي في الأعلى أبقى.

عاد عمار العودة الأخيرة مقطعًا بلا وجه بلا ملامح، جسد فقط عظام بسيطة يكسوها بعض اللحم المتفرق، كل شيء كان هذه المرة لأخر مرة، القبلة، العناق، حرارة الأنفاس، وطفلنا هذا أيضًا الأول والأخير، عامنا كذلك.

هذا هو المعنى الحقيقي للجوء والتشرد والشتات والهجرة.. هذا المعنى هو الأشمل لجميع النكبات والنكسات.

أن أهوى القدس وتمنعني عنها التقاسيم الظالمة، ثم يكون لي قدر في المخيم يتوقف بعد عامٍ واحدٍ فقط من بدئه.

أنا عارية..لا شيء يسترني إلا طفل صغير يقطن أحشائي، وصورة واحدة فقط أجل ما تبقى لي صورة واحدة مع ذات الابتسامة..

لما رحل عني روحي باتت كل التفاصيل واهية تفتق جروحي تنفث فيها نيرانًا من الشوق والوحدة.

فلك طيف يا غائبي يشبه كل ما أحب.يشبه منزل والدي المهدم.. منزلنا المهدم.. ملابسنا المحترقة، أحلامنا المهترئة.

لك طيف يشبه زيتونة منسية في الكرمل.. قطعة ذهبية منقوشة على جدران قبة الصخرة، صخرة معلقة في السماء، يشبه هبلانة وهاليل أجراس الكنائس في الناصرة.. يشبه الأذان في كل المدن.

لك طيف يشبهني، يشبه طفلنا ومنزل أجدادي في صفد.

عاد عمار محمولًا بين ذراعين اثنتين فقط.. فاقدًا بعض أجزائه بل معظمها، إلا ذاك الجزء المتعلق بالوطن، إنها لمن الأشياء الفاتنة أن يأتي الإنسان للدنيا عابسًا باكيًا ويرحل مرغمًا، إلا الشهداء يستثنون من قاعدة الرحيل، ينتقلون لحياة أخرى تعلو وجوههم ابتسامة وإن كانوا بلا وجه أو معالم، يعلمون خواتيم الأمور.

جاد

روما – 2015

لم تعد نساء مجتمعنا يؤمنّ بالحب، نحن الآن نؤمن بالزواج، تخطينا تلك المرحلة التي نكون فيها كالدمى المتدلية بالخيوط.. محض أخشاب تحركنا أصابعكم، أوتدري الحبكة المتينة تكمن بزواج الفتاة من شاب مستقل بذاته لا تحكمه امرأة أخرى وإن كانت أمه!

فركت عقاب السيجار التي كانت تدخنه وأضافت:

"ذاك الأفق لم يعد ضيقًا كما تظن، إنه الآن أضيق من بنطالي، أتخالني ساقطة بلا مبادئ؟ إلا المبادئ، أتخلى عن ملابسي جميعها عند أول عشرة دولارات يعرضها علي رجل ملّ من زوجته وتعنتها ويحتاج أن يغير رائحة العطر النسائية التي تلتصق بملابسه عند ملامسة أنثى وإن كان عطرًا رخيصًا كهذا الذي أضعه، ولا أغير مبادئي".

من هنا قبط المبادئ، جميع البشر لديهم مبادئ، جميعهم بلا استثناء.. من دفع سيسيليا لتصبح ساقطة سوى مبادئ شخص آخر!

إننا حمقى كما قلتِ يا جميلة، حمقى جدًا، نجهل ماهية المبادئ ونربطها بالأعراف والتقاليد ونتمرد! فتصبح العفيفة ساقطة من باب الثورة على العادات والتقاليد والساقطة عفيفة ويبقى ينظر لها المجتمع بعد هذا على أنها ممر للفاتحين..

ربما تكون الانتهازية مبدأ، السرقة مبدأ، الانحلال مبدأ، وكلٌّ يغني على ليلاه، المسألة تتعلق بالإيمان الذي يندرج تحت باب عقائدي في عالم تحكمه الحكومات العلمانية بلا استثناء.

هذا هو الحوار الذي دار بيني و بين سيسيليا اللبنانية قبل عشرين عامًا من الآن، فقد كنت أرتاد الملاهي الليلية.. أحاول أن أجد ريح طهري المقتول في صبرا وشاتيلا في أحضان العاهرات اللواتي مللن الجنود القادمين من أرض المشرق حتى يظفروا بانتصار أخر مفاده النساء لا الأرض، أنا أسميه المشرق وأنت تنادينه بوطنك العربي..

جُل ما أتذكره من الوطن العربي فستان جدتي المرقط بالورود كثيرة الألوان، ومريول والدتي الأزرق الخاص بالطبخ، أمي الأجنبية ووالدها جانيت من – نيويورك –.

لم تعلمني يومًا أن الأرض وطن وإن توطنت هي برغبة من والدي بدافع الحب، كيف تعلمني أمي ماذا يعني الوطن وهي كالمحتلين، غادر والدي تاركًا خلفه ابنة عمه ووعدها بالعودة من أجل الزواج، فعاد وأمي تحملني في أحشائها!

- بروفسور جاد، سيعود الهنود الحمر يومًا إلى هاواي وأعود أنا إلى يافا.

بدأت الأجهزة الموصولة بجسد جاد تضطرب، معلنة توقف نبضه حتى صاحت جميلة وبدأت تنادي الممرضات، لا تدري ماذا تفعل، تستمر بالدعاء وقراءة آية الكرسي أم تزداد نحيبًا، تعانق والدها في الغربة مودعةً أمًّا تصمت من أهوال الفقد المتتالية، أسبوع واحد فقط يفصل جاد عن زيارة سمير لروما، وآمال جديدة متعلقة بخطابات الرئاسة الفلسطينية عن إمكانية إلغاء اللجوء السياسي وعودة أهالي القدس الشرقية إلى الأرض المقدسة لم تعد تفيد، لقد تأخر كل هذا عن الأشخاص المنتظرين، نجت هي بأعجوبة من ثلاث حروب متتالية مست القطاع، جنسيتها البريطانية أعطتها الحق الكامل بالسفر، منحتها الحصانة للهرب من الموت بأسلحة صهيونية.

لكنها عجزت عن منحها القدرة على الهرب من موت القلب المفاجئ، شيء ما ينبض على الجهة اليسرى من جسدها فقط ينبض، ولا يشعر بشيء سوى بسكرات الموت.

مات جاد وحين استعدوا لمراسم الدفن، طلبوا من أحد أقاربه أن ينعيه، وقفت جميلة لتفعل فافتتحت مراسم الدفن بـــ"عمر بروفيسور جاد من عمر نكبتنا بفلسطين، رح يندفن جاد ويا ريت تندفن معاه نكبتنا،أنا آسفة مشان سمير مارح يصحله يشوف وجه والده، صمتت

ثم نظرت إلى الجالية الفلسطينية التي حضرت لجنازة جاد، وجهت لهم حديثًا خاصًا مفاده: (مات جاد ولا يحتاج فعليًا أن نحزن على فراقه، بل يحتاج أن ننتفض لأجل المسجد الأقصى كي لا يموت هو كذلك)، نظر الجميع إليها وسط ملامح من الدهشة والذهول فأضافت: "أتاني نبأ هذا الصباح أن بريطانيا اعترفت أخيرًا بوجود دولة فلسطين، هه عجيب هو الأمر تذكرني الدولة التي أحمل جنسيتها إلى جانب جنسيتي الفلسطيني بإخوة يوسف" أردوه وحيدًا في البئر وقالوا: نتوب "من ألوم؟ بلفور! القومية العربية؟ أم ألوم نفسي لأن والدتي بريطانية!

توقفت عن الحديث و قبل أن يغطوا وجه جاد بالتراب رحلت، في ذات الليلة التي توفي فيها جاد، حزمت حقائبها وعند الصباح قامت بسحب أوراق التسجيل الجامعية الخاصة بها، هذا هو القرار المثالي بنظرها، الرحيل أو بالأحرى العودة.

***

أحمد

قطاع غزة – 2015

بعد أن وصل أحمد قطاع غزة عاقدًا العزم أن يحظى أخيرًا بجميلة، واضعًا أمامه كافة الاحتمالات كافة إلا واحدًا، ألا وهو الرفض باديًا لي أنه سيستمر، ربما.

ففي حد السياف أحيانًا احتمالات كثر، لكنه يستبعد الموت مع أنه من يفتعل المواجهة أحيانًا لكن و يقينًا منه بالانتصار يستمر بالقتل حتى يُردى قتيلًا؛ هكذا هم الرجال حين يرحلون يحققون انتصارات متتالية حتى يُردّونَ قتلى.

عاد أحمد إلى منزله الموجود في حي الصبرا مدركًا أن جميلة في الخارج تتلقى تعليمها، أنشأ خطة عمل تتخطى حدود جبنه هذه المرة، يبدؤها برسالة و يختتمها بخاتم زواج، ولو أن بيده أن يحضر لها جنية ما تنثر غبار الحب القبلي حتى ترضى ما كان مقصرًا.

بعد أن صعقت والدة أحمد بنبأ طلاقه من صوفيا الفتاة اللبنانية الجميلة رفضت رفضًا كليًّا فكرة زواجه بجميلة أو حتى الذهاب معه لمنزل والدها طلبًا ليدها ولأسباب يجهلها أحمد ويجهلها الجميع عدا والدته، ظلّ مُصرًّا على رأيه، في حين تحول حوارهما إلى شجار خرج من المنزل متوجهًا إلى إحدى الفنادق الموجودة في القطاع مغلقًا هاتفه، تاركًا العنان لأصابعه أن تكتب ما يعجز لسانه عن نطقه، ظلت بنانه تردد "في المطار" أخرج حاسوبه المحمول..

جميلة،

"راميًا بسهام الماضي خلفي، متجاهلًا تلك الشجرة العصماء التي تأبى أن تجمعنا حلالًا أراسلك، لم أخبرك عن السبب الحقيقي الذي دفعني للرحيل ودفعني أيضًا للزواج بعد أسبوعين تقريبًا من هذا الرحيل، لم يكن من اللائق أن أتكبر على كذباتي الكثيرة التي صدقتَها يومًا من باب الهوى، أتنازل..أمي التي تحدثتِ معها عبر الهاتف لم تكن تعلم أنك حبيبتي بل مجرد زميلة لي في عملي، تكبريني بعامين، فكيف أخبرك أن والدتي رفضت أن تزوجني إياك بعد أن أخبرتُك أنها تعلم بحبنا بل تباركه! وترفض قطعيًّا أن تمنحني ردًّا منطقيًّا لرفضها.. زوجتي التي ظننتِ أنني أحببتها عليك، لم تكن كذلك تزوجتها مرغمًا حتى أشبع شهوتي حتى أشعر برجولتي المفقودة.. ولمزيدٍ من المصداقية غدًا سأتقدم لطلب يدك بعد أن طلقت صوفيا الأسبوع المنصرم ورَفْض والدتي للمرة الثانية لزواجنا ولا أهتم.. أحبك بعد عامين من الانقطاع عن الحديث لكن عدم الانقطاع عن التفكير بك."

جميلة

قطاع غزة – 2015

منذ وصول جميلة إلى قطاع غزة وهي غير قادرة على استيعاب المزيد من الخذلان، زارتها صديقتها المقربة سوسن، والتي تعرفت إليها حين كانت معها في الصف ذاته في المرحلة الابتدائية، فاستمرت صداقتهما لمدة طويلة، نظرت إلى وجه جميلة العائد من الغربة لكنها تعرفت إليه بصعوبة، لقد عادت محملة بكل وجوه العابرين إلا وجهها الأصلي، لكن هذا لم يمنعها من استقبال صديقة عمرها بشغف، حين دخلت سوسن منزل جميلة همت بعناقها وهي تقول بصوت يخنقه البكاء:

– أنا أمقتُ المغالاة في الحزن يا سوسن، أمقت إظهار الضعف وشِدَّة الشوق، أكره إعطاء الموت هذه القيمة الكبيرة التي تكسر قلوبنا، أنا أكره الموت يا سوسن أكرهه.

حاولت تهدئة صديقتها المرتابة من العالم، كانت جميلة على غير العادة تنظر إلى الحياة من ثقب إبرة ومع هذا تتمسك بها.

- لقد استلمت رسالة بريد من أحمد، بعد انقضاء هذه المدة، يعاود مراسلتي، يبدو أنه رآني سعيدة وأنا أغادر القطاع عندما قابلني في المطار، فأراد أن أحزن مجددًا ؛ قالت جميلة هذا وهي تعانق صديقتها بشدة.

- هوني عليك عزيزتي، لا بأس لطالما كنت الفتاة القوية، أين هي جميلة الجميلة المشعة بالتفاؤل والحياة؟

أمسكت بجميلة من كتفيها وقالت من هو المازوكي الآن؟ أنت أم أحمد المزعوم ذاك، ضحكت جميلة وتذكرت أنها كانت تنعت أحمد بالمازوكي؛ لأنه كان يحب أن يشعر بالحزن والظلم والقهر، وقد استندت إلى تحليلاتها بأنه يتيم ربته والدته، لقد أدمنت جميلة مدة طويلة قراءة الكتب التي تتحدث عن المازوكية، وطرق أصحاب هذا النهج في تعذيب أنفسهم حتى أقنعت نفسها بأن أحمد لم يكن إنسانًا طبيعيًّا يومًا.. لقد استطاعت نسيانه من خلال هذه الطرق المبنية على تحليلات علماء النفس، وحتى تخرج سوسن عن النص أخذت جميلة، ودخلت معها إلى غرفتها، وطلبت منها أن تتلو عليها رسالة أحمد مقتنعة تمامًا أن كل ما يؤلم لا يقتل ولا يمسح وجود القوة بل يزيد منها، حين انتهت جميلة من القراءة دون أن تذرف دمعة واحدة

نكـــأت صديقتها المرحة وجع جميلة بسؤال ذكي يجعلها تستطرد في وصف معاناها مع أحمد دون أن تشعر بذلك

- جميلة.. كيف أصل إلى قلب رجل؟

- عليك أن تعلمي أولًا أن الرجال ينقسمون لثلاثة أصناف؛ الصنف الأول: مَن يُقدِّر تضحيات المرأة وبالمقابل يضحي ويحارب من أجلها، الصنف الثاني من يطلب من المرأة أن تضحي لغايةٍ في نفسه ألا وهي الحاجة المفرطة للاهتمام المفقود، ومع هذا يرى جميع النساء مجرد جسد، حين تترك منهن فراغًا يسده جسد الأخرى (بتهكم)، أما عن الصنف الثالث يا عزيزتي صاحب الوعود الكثيرة والخيال الواسع المشبع بالكذب صاحب أقل فعل وأكثر كلمات رومانسية رنانة، القادر على سلب المرأة عفتها، وإن كانت بطهر مريم تحت ستار الحب والتضحية التي سيختتمها هو بالزواج بأخرى وطفل حديث الولادة ببشرة وردية ينسب إليه فيصبح مليك الطهر.. الصنف الذي يمتلك خطة تكتيكية محكمة للهروب والهرولة نحو نهدٍ جديد لم يلوثه جوع العابرين فيفعل هو ويرحل مجددًا.

- بيد أن الصنف الأول منقرض منذ عصر الديناصورات، والثاني موجود بنسبة ال 20% لم يبق أمامنا سوى الصنف الثالث الملعون، أنا أقبل بالعنوسة يا جميلة.

- ستقبلين بها رغمًا عنك، فهو جبان جدًّا على أن يحول دعواتكِ في الصلاة أن يجمعك الرب به حلالًا إلى حقيقة، كيف له أن يفعل

وكل ما يسمعه عبر المآذن من المستشيخين آيات عن القتل والترهيب، لو نضحت تلك المنابر يومًا بالآيات التي تهذب النفوس والحب وتصوره ضمن مكعب الزوجية لما صرنا في هذه البقعة من الدنس والسخط، إن الله إله للحب أيضًا.. إنه ليس بالشرير يا جماعة!

- كل هذا الحقد على شبان مجتمعنا لن يفيد يا جميلة.

- هو شاب واحد يا سوسن فعل هذا بي وجعلني أبغض الجميع وأتصورهم بالبشاعة ذاتها.

- إنه خطأ.

- أعلم، وأحتاج فترة طويلة كتلك التي انقضت حتى أنسى مجددًا.

***

سلمى

قطاع غزة – 2014

ربما سأتحدث عن تلك المواقف البسيطة التي تبكينا وعن هول الصدمات التي تأبى لنا أن نذرف دمعة واحدة من شدها عن المواقف الجبانة التي تتطلب شجاعة كبرى، وعن الاختيارات التي اشترك الجميع في فرضها علينا، عن الورود التي انتظرنا كثيرًا حتى هدى لنا ولم يحدث، التضحيات الكبرى ونتائجها العبثية عن انتهاء الحرب وعودة عمار.

أتاها بعد انقضاء عشرين يومًا على وفاته أنباء بوجود مجموعة من شبان المقاومة تحت نفقٍ قام الاحتلال بقصفه مع نجاة الشبان،لا اتصال هاتفي يريح قلبها ويخبرها أن إحساسها بوجوده على قيدِ الحياة حقيقة محضة، ومع انطلاق جرس المترل استقبل حماها قائدًا ميدانيًا صارخًا: هاتِ البشارة! هاتِ البشارة! ارتسمت على وجه والد عمار معالم

الدهشة، لم يلتئم جرح قلبه بعد أن فقد ابنه قبل أيامٍ معدودة فكيف لرجلٍ بذكاء أبو حمزة يطلب منه 'الحلوان'..

- تفضل أبو حمزة، عساك بخير.

- لا يوجد عندي مساحة من الوقت، أنا أحمل أنباءً سارة، عمار حي لقد نجا هو وجميع أفراد كتيبته.

صمت والد عمار، وانهارت والدته من شدة الفرح حتى علت الزغاريد فطلبت منها سلمى التوقف حتى يتم تأكيد الخبر،وكي تذكر عمتها أن بيوت العزاء ما زالت قائمة.. عانق أبو عمار القائد الميداني:

- وديني ع ابني قبل ما تخلص الهدنة وديني أشوفه.

- لا تخف، سيأتي هو إليك نحن ننتظر الآن انقضاء أخر خمس عشرة دقيقة لتبدأ الهدنة الفعلية، ننتظر خطاب الرئاسة من رام الله لكي يتم تأكيد انتهاء الحرب، يجب أن أذهب الآن نحن نستعد للعودة إلى منازلنا.

- لا، لا تذهب، أرجوك، أنت تعرض نفسك للخطر، لا أمان في الخارج، يبقى المحتلون يقصفون حتى الدقيقة الأخيرة من إعلان توقف الحرب.

- آسف يا عمي، عليك مسامحتي، عندنا الكثير من التجهيزات..

إن الذي نفخ فينا الروح هو الذي يأمر متى يجب يأخذها..

إنها بلا شك أطول خمس عشرة دقيقة مرت، يبدو أن الساعة تتعامل مع عقرب الثواني بعنفوان فتمر الثانية دقيقة والدقيقة عشرًا وها قد انتهت.

العرض العسكري الذي خرج به رجال المقاومة من الخنادق بزي المعركة أثار مشاعر أهل القطاع وأججها، حتى خرجت الاحتفالات بانتهاء الحرب،وكأنما الموت لم يمر يومًا بتلك الأرواح، ترى بالشوارع أم الشهيد تعلو بالزغاريد وتهلل فتحتضن شابًّا من المقاومة "الله يحماكن، الله يحماكن " هي دموع متجانسة كليًّا، من في هذا العالم السيئ جدًّا يشاطر أولئك المكلومين فرحة كهذه!

حمل الموكب عمار ومن معه إلى منازلهم سالمين..

ركنت حسيسها على جانب الطريق، راكضة نحوه خوفًا من أن يكون محضَ سرابٍ في صحراء الدمار.. لن يُشفي غليلها إلا حين تلمسه لتعلم جيدًا أنه عمار، فبعد أن وضعت الحربُ أوزارها على شكلِ حزامٍ متفجرٍ عند دقيقته الأخيرة يلفُّ خاصرة سلمى، عاد عمار بعد انقضاء عشرين يومًا كدهرين، عاد بعد أن ظنه الجميع قد استُشهد..لن تضطر هذه المرة إلى توديع أشلاءٍ متخالطة لأجسادٍ مختلفة، إنه جسد عمار المتكامل مع فقدانه للكثير من الوزن، تكاد تشتم رائحة روحه تنبض بالحياة بالحاجة إلى السلام كأنما عود مارسيل يغني ألحان درويش مجددًا.

فقط وقفت أمامه في حالةٍ من عدمِ التصديق، إن الهبة الإلهية تتجلى في مثل هكذا حدث، يكرمها الرب بعد دعواتٍ كثيرة وعدم فقدانٍ للأمل، سارع بدوره عمار لاحتوائها بين ذراعيه حتى اختلطت رمال الأرض التي تغطي ملابسه بعبق رائحتها.. أجهشت سلمى بالبكاء لم تنبس بكلمة.

أيضًا شدة الفرح تستدعي بُكاءً كهذا،كرجلٍ بكامل وقاره ورزانته حين ضحك للمرة الأولى عند سماعه لروايات أحفاده عن مغامراتهم الخيالية في الغابة.

- إذن انتهت الحرب، وعيناك تعنيان أنني أظفرُ بالنصر.

- عمار، أن.. ا، أنا حامل.

نطقت بها وكأنها تمنحه هدية كتلك الأوسمة التي تُمنح للأبطال على ملأٍ كبيرٍ من الناس تكريمًا لصولاتهم وجولاتهم في أرض المعركة.

***

أحمد – جميلة

قطاع غزة – 2015

إنّ الأحلام كالعادة ستعود للتكدس، وكأنّ الدليل الوحيد لحلها ضاع منذ مدة وتباعدت أطرافه، استطاع أحمد أن يصل إلى أحد أحلامه مؤخرًا، وهو أن يعود إليها نادمًا علّ شعلة من الشغف الذي كانت تمده به سيعود إليه، باتَ يتخيل تلك الأنامل تداعبُ خديه كطفلٍ بجسدِ رجلٍ بالغ، توقظهُ عند الصباح بضمة ورودٍ من تلك التي زرعتها على النافذة مقابل خيوط الشمس، تقبله برقةٍ ملائكية.. بدقة تامة خوفًا من أن تخدش شفتاها حياء جبينه، فيسارعُ لاحتضانها هامسًا بأذنها "دعيني أنام" كأنها الراحة المطلَقة التي تنسيه صوت المنبه وتحقق له مطامعه بنوم خمس دقائقٍ إضافية فلا يبالي بالنوم،العمل، وينهال عليها بالحب، حتى يتأخر فلا ينسى أن يلمس الضفائر مودعًا بضع ساعاتٍ مصاحبًا إياها ستَ قُبلٍ على عجل فتذكر أمامهُ بشيءٍ من الخجل "مَن الآن أشتاق إليك".

رسالة يتيمة وصلته من جميلة قبل أن يطلبها من والدها بيوم، هو ذات اليوم الذي قالت فيه لسوسن إنها لن تراسله لكنها لم تستطع.

بعد عامين ونصف العام ما زالت لا ترى رجلًا يشاطرها العمر الطويل إلاه.

"خذني إليك، فما هي إلا نصوص دقيقة لم أرغب أن أُقرئكَ إياها يومًا، إناء مليء بالتبغ العربي وشعرٌ لم تجف الحناء عن أطرافه البنية.. رغبة عارمة بالبكاء أمام باب الثلاجة عند انتصاف الليل، الكثير من الكحول الذي حرمته في الغربة على قلبي حتى ثملت وثملت أطرافي، حديث العذراوات عن زيت الزيتون الناضج على حافةِ الإناءِ الأخضر بشيءٍ من الزيزفون،تلك الغجرية التي تصرخ بعد كل رقصةٍ على أطراف الأصابع التي فقدت استحيائها وباتت تنادي خذني إليك، فأنا قوية بدرجة كفاية لأكون زوجة رجلٍ من الحضر، أقوى على خياناته على كذباته المتواصلة حين يتأخر مساءً فيُقبلني "عشاء عمل"، ويخلد بجانبي جُثة هامدة.. خذني إليك فما عُدتُ أريدك ولا عدتُ أحبك ولا عدتُ أعيّ أنني أفقه بالجنون فأغضب وأصرخ كما الغجرية بعد ليلةٍ طويلةٍ من التعب، "خذني إليك".

جميلة".

هي رسالة واضحة تمنحه الأمل حتى يُكمل فتنتهي كل هذه المهزلة بالزواج.

نرسيس

روما - 2015

من يعقد صفقة مع الشيطان يخسر أخيرًا، هي الرسالة التي أودعتها نرسيس تحت وسادة النوم الخاصة بفيليب ورحلت..حين استيقظ وجدها كأنها الفاجعة هرع إلى المطبخ باحثًا عنها بملابس النوم حتى نهره رئيس الخدم، فهمست بأذنه إحدى الخادمات: "أخبرتني نرسيس أن زاهيرا حذرتها": لن تعود.

عاد فيليب إلى غرفته فوجد مذكرات بالية على سريره، ذُكر فيها:

"نرسيس تشبه أمة من الأمم التي سيشتت شملها وتتكالب عليها الدول الكبرى في المستقبل، فترحل أخيرًا في طريقٍ مليءٍ بالسلام، أما عنك فقد عقدت صفقة مع الأمة الخطأ، أمة تعبد الشيطان وتنظر لنفسها على أنها الجنس المقدس.. إن رفضت عرضها بالانضمام إليها

فتلتك وإن انضممت إليها ولم نزور كل الحقائق لأنها فتلت، ليس أمامك حلول.. زاهيرا عانت كثيرا من الظلم حتى ضحت بنفسها لكي تصل السعادة أخيرًا لمن يستحقها، أما عنك فما كان يجب أن تستبيح حرمة السر الذي أودعتك إياه نرسيس.

كانت هذه مذكراتي.

زاهيرا".

عزى الأمر إلى خيبته، فعلق وسط الغرفة حبلًا حتى ظهر بوجهه الكائن الغريب ذاته، أنا لا أمنح الفرص لكنني أقدر ولاءك، ليست نرسيس الوحيدة هناك اثنان وعشرون شخصًا مثلها..إن رغبت نكمل وإن لم ترغب فالموت بهذه الطريقة هيّن.

- أنا معك.

- تخلص من اشتراكيتك ولن أبالي بلون بشرتك.

- سأفعل.

ربما انتهت أحلام جميلة إلى هنا فما كان هناك من داعٍ لاستكمالها، فما حدث للأشخاص الاثنين والعشرين لن تتحدث عنه التواريخ السابقة، بل هو ما يجري الآن.

***

ناديا عليا

بيروت – 2015

بُنيَّ حان موعد حسم الأمور، حان الوقت الذي يجب أن ترى به شهادة ميلادك الأصلية، أن تعرف أكثر من هو علي جبابرة ومن تكون جميلة، اعذرني على شدة قسوتي، فأنا تزوجت مرتين برجلين من القطاع، ما كان يجب أن أفعل هذا.. كيف دارت الأيام لتعود أنت أيضًا كوالدك الأصلي علي جبابرة إلى القطاع، زوجتُك بصوفيا حتى تكف عن التفكير بجميلة بعد أن أنهكني اسم والدها الذي ذكرته أمامي كنوعٍ من النسب المشرف، بداية قلتُ ربما تشابه الأسماء فاسترسلت بسؤالك عن والدها، كانت الطامة الكبرى أنها بريطانية الجنسية.. تلك المرأة التي تزوجها والدك حين طُردت منظمة التحرير من لبنان وطُردَ معها، تواصل والدك مع صديقه بعد طلاقي حتى يتزوجني بسبب منعه دخول لبنان وعدم السماح لي بالخروج منها

لأسباب أمنية بل ونسبك إلى زوجي الجديد حسام عليا.. لم يكن يومًا ببالي أنك أحمد عليا، دومًا أكذب على الباعة، على جاراتي، أخفي عنك أنت صاحب الشأن هذه القضية، ليس بوسعي أن أرسل إليك أكثر، سأكتفي بصورةٍ أرفقها تجمعني بك وعلي، وصورة أخرى تحمل شهادة ميلادك الأصلية التي أصدرها مشفى بيروت الحكومي..لقد ظُلمتُ أنا أيضًا يا بُني فهو لم يسأل عنك منذ تلك المدة حتى أن علاقته بحسام انتهت تمامًا...أرجوك تذكر أنني أمك التي اعتنت بك طويلًا وفي جوفها سرٌّ أرعن خافت أن تفصح به فتخسر كرامتها وتهرع أنت لتبحث عن أبيك بالدم لا بالعطف تاركًا إياها في غُربة موحشة تُدعى الوطن.

بعد أن فشلت والدته بإقناعه أن يرفع سماعة الهاتف حتى يجيب اتصالاتها المتكررة من لبنان، أرسلت بريدًا إلكترونيًّا يحمل القنبلة أخيرًا.

هطلت أعوام عمره المنصرمة عليه براميل متفجرة، هل يعقل أن تكون والدتي صادقة؟! غدًا كنت سأطلب يد أختي، أطلبها من أبي! الذي سيرفض أيضًا حين يعلم أن والدتي ناديا عليا..وجميلة أختي! كيف هذا! كيف استطاع كلاهما أن يخدعانا! لا أصدق، سأنفجر! من أهاتف أولًا! أبي، أمي، أختي سمية..جميلة! كيف سأخبرها، أمي تكذب، لا ليست كذلك، لماذا قد تفعل هذا لن يصل بها التعنت تجاه جنسيتي إلى هذا الحد.

حالة الغليان التي حصرت نفسها بين الرئتين والبلعوم على شكل بحة، تخنق فيه ما تبقى من نفسٍ وهدمُ بالوقت ذاته كل ما حلُمَ به في الآونة الأخيرة تلك البريئة التي اختنقت بين يديه في حالةِ شبق كانت أخته من أبيه التي ما علم عن وجودها يومًا، مرت أمامه كلماتها في حالةٍ من النجوى أن فُكَ وثاقي، اتركني دعني أحافظ على ما تبقى مني ؛ كأنها سربٌ من السيوف تفتكُ به..

كيف استطاع أن يتجاهل كل تلك المُدة فتاةً تُشبه الفردوس قبل أن يغوي الشرير آدم فيخرجه منه،كأنني الشرُّ هنا!كيف تُغفر خطيئتي وأصِلُ إلى النجاة! كيف أجرؤ بكامل وقاحتي أن أطلب منها العفو والغفران؟ وإن فعلت هي دون سؤالٍ مني كيف أقبل العيش حتى إن صار حلوًا!

علّ آخر قطعة ملابسٍ تركتها على جسدها البتول تغطي جمال عينيها عن قُبحي، فلا تراني ولا أراها فأنا عاجزٌ عن مصافحتها واحتضانها يبدو أنني وجدتُ أخيرًا أختًا من أبي، هل كان من الضروري أن تكون اللقاءات بعد طمسٍ للحقائق دام زمنًا طويلًا مؤلمةً لهذا الحد!

وهل يجرؤ أبي أن يعانق كلينا في يومِ اللقاء؟ جميعُنا، أنا، أبي، من مخيمات اللجوء، أمي الشديدة البأس، جميعنا بلا استثناء انتهكنا جسد جميلة، وقبل كل هذا انتهكنا إنسانيتها، فلنذهب إلى السعير؛ فنحنُ لا نستحق تلك الحياة التي تشبه عُذريتها وجشعي.

سيخبرها: هذا هو القرار الذي اتخذه عند الرابعة فجرًا بعد تفكيرٍ حثيث دام نهارًا وأرباع يومٍ جديد، هرع يتصل بها بتردد فوجد هاتفها مُغلقًا، فتنبه للعامين والنصف، لن تعود لتستخدم ذات الرقم.. كيف أصلُ إليها؟ لا شيء أمامي إلا السكايب..هي بحالة اتصال بالإنترنت.

– جميلة.

– أحمد.

– يجب أن أراكِ غداَ في احد المطاعم.

– لا أقبل.

– أرجوك إنه موضوع جدّي،صدقيني هذه المرة لا شيء ببالي، إنه أمر يخصك.

– هل سترحل مجددًا!

– إن الرحيل يا جميلة لأهونُ عليّ.

– أحمد ما الأمر؟

– غدًا يا جميلة أرجوك..لا، لا، بل أتوسلُ إليك.

– لا داعيَ لكل هذه العبارات من الترجي، لن يؤثر لقاء واحد قبل الزواج، سأضع بنيتي أنها خلوة شرعية.

صمت أحمد قليلًا ثم أضاف..

– عند الثانية عشرة ظهرًا، مطعم عسقلان.

– سأكون هناك في الوقت المحدد.

– تصبحين على خير.

– تلاقي الخير.

***

الموعدُ الأخير:

صرَّحَ بالموت في أول خطوةٍ اتخذها نحوها،كانت تجلس ببساطة على طاولة رقم **14**، لم يصافحها ولم ينظر إلى عينيها مباشرة كما كان يفعل عادة، الأمر الذي دفع جميلة للظن بأنه تراجع كالمرات السابقة عن قراره، فابتسمت للتعبير عن المثل القائل: "ديل الكلب عمره ما بينعدل يا أحمد".

اتخذ الكرسي المقابل لها وبقي صامتًا، حتى هي كذلك لم تشأ أن تبدأ الحوار هذه المرة، لطالما بدأته هي، لاهيًا بكل شيءٍ يوجد على الطاولة متنبهًا إلى الوقت في هاتفه، هي تعلم أنه يتحاشى الحديث عن شيءٍ ما

- أهلًا و سهلًا، حابيين تطلبوا شي.
- قهوة، اسبيرسو لكلينا.

دوّنَ الجرسون طلب أحمد وما لبث أن عاد بعد خمس دقائق، لا يزال السكون يخيم على الطاولة 14، لطالما جلس عليها، العشاق، الخُطّاب، المتزوجون، كانت الابتسامة تملأ شدقي أيّ اثنين كانا قد احتلاها مؤقتًا قبلًا.

"نفس عمي":

- جميلة.

- أحمد.

- لا أدري كيف أبدأ، كيف تعود الكلمات إلى جوفي؟ هل ستصفحين حين تعلمين.. هل..؟

قاطعته:

- لا تكمل، الحقيقة فحسب هي كل ما أحتاجه، ألا تعلم أنت هذا؟!

- كلانا جرّح بعضنا الآخر بما يكفي، رسائلك التي تُشبهني بقارون وقلة العفة..أعلم أنكِ صادقة للحد الذي جعلني أرفض تصديقك، أعلم أنني شديد القبح وأنني خلقتُ من وردة سياجًا ممتدًّا من الأشواك يلفني من أخمصي قدمي إلى أعلى رأسي، جميلة لم أرغب يومًا أن أقرأ رسائلك الطويلة جدًّا والتي تصف عيوبي بشكلٍ مُفصل فتلحقينها: بأنا أُسامحك!

تؤلمينني حين قولها أكثر من ألمي حين ترمينني بأسوأ الألقاب، تصفين متعتي بالجحيم وشدة الكِبر، بالسُّحق، أصدقك.. أذكر جيدًا رسائلك وفحواها أن أحذر الأيام حين تدول، وها قد دالت، دموعك الأبية عن النزول،نظاراتك الموحية باللامبالاة والتعنت، رزانة كتفيك، سهولة ارتشافك لفنجان القهوة، كلها وأكثر تستوقفني أنا الضعيف فتصفعني كيلا أبقى غافلًا...

– أحمد، هل تبكي حقًا؟

– أجل، أفعل..

واصل حديثه وهي في حالة من الشرودِ والدهشة:

– جميلة حدث هذا منذ زمنٍ طويل، لا أُدعى أحمد عليا كما ذكر بالبطاقة الشخصية وجواز السفر، والدي ليس حسام.."

توقفت جميلة عن تناول قهوتها، فقلبت فنجانها علّ تلك القارئة تزور طاولتهما مرة أخرى كما فعلت قبل عامين ونصف العام..

– أكمل.

أخرج تلك الصورة التي تجمع والدته ناديا عليا بوالدها علي جبابرة.

– لم أفهم.. معرفة سابقة!

- أنا الطفل بالصورة حين أتممتُ شهري الأول، هذا والدي الذي خرج من بيروت قصرًا وتلك والدتي.

شعرت سلمى بالدوار الشديد، فتوقف بدوره عن استكمال الحوار الذي أعد له طوال البارحة، ما كان لجميلة إلا أن تسبب له وجعًا جديدًا مستخدمة الكلمات ذاتها التي لطالما استخدمتها قبلًا لكنه لم يكن يومًا ينتبه لها.

أتدري يا أحمد! لم يبقَ من غاياتي التي زرعتها بك إلا قسوة العناق لكن بلا عناق، وهأنا أجلس أمامك الآن بخير، أبحث عن طريقةِ الهرب، أتساءل عن أفكاري التي سببتها ورائحة البخور المنسي على خفةِ الكير، أتساءل:هل ينتقم فمي الذي اعتديت عليه لنفسه ويصمت فحسب؟! ربما أراد الله أن تتذوق مرارة فقدان أختك لشرفها فأكون بهذا أنا، أُذيقك حرمة جسدي على جسدك ومرارة تآخينا: ما نفعُ تفكيرك بي بعد عامين ونصف العام من زواجك بلبنانية كوالدتك،لستُ غاضبة بل راضية..ما أجمل هذا الشعور يا أحمد! كأن العدل في السماء يقتصٌّ منك ويجبر كسر عفتي، أجل أنا أسامحك لأؤلمك مجددًا، علّك تذكر بهذا جميع من صرخن تحت دقات قلبي المتسارعة الخفقان، لرائحة أنثوية، علّك تذكر أنك لا تختلف أبدًا عن اللصوص والقتلة، لا تختلف في الإثم كثيرًا عن شخصٍ ألقى بعد تعبٍ طويل والديه في أحد بيوت المسنين التي يطبقون بها سياسة الموت الرحيم.. كم صلاةً تحتاج؟ هاه؟ كم سجدة؟

أخبرتني يومًا أنك ب "عمرة" واحدة ستعود وليدًا لم تمسسه الذنوب يومًا كثوبٍ نقيٍ من الدنس، تلك الأساليب الملتوية إن مرّت على إناثٍ منكسرات لا تمر أبدًا على إلهٍ فَطَرَك.

- جميلة.

- سأرحل.

***

سارة

قطاع غزة – 2015

عاصفة رملية ستضرب المكان هنا تعويضًا عن كل الدماء التي نزفت خلال ثلاث حروبٍ أسوأها آخرها، لقد عملت هنا مع أهالي القطاع في مجال الطب النفسي، وأنا أكثر المحتاجين لجلسة تجمعني مع طبيبٍ نفسيٍّ خاص، وضعت سارة إكليل الورد الذي صنعته لها إحدى الفتيات حين أتت القطاع بعد الحرب مباشرةٍ مع الوفود الأجنبية جانبًا، وأيقنت أنها لم تغادر منذ ذلك الوقت، آثرت أن تبقى لتستمع إلى المزيد من القصص غير تلك التي سمعتها من سلمى وجميلة وغيرهما؛ لتعلم أن مصائبها المتتالية كانت رحيمة مقارنة بمصائب نساء القطاع، مضت عشرُ أعوامٍ على موت مُرقص السيد النبيل الذي تركها وحيدة في سن الثامنة والثلاثين، بفضله نجحت في أشياء كثيرة إلا الحب، لقد جعلها تتغاضى عن فكرة إنشاء أسرة، هي فقط تُردد

في صلواها أنك يا إله الحب الخالد قد أخذت مني سُبل الحب، فلا تأخذ مني سُبل الخير والسلام، وكنتيجة أتت هنا.

"أنا سارة التي تخجل من نطق اسم عائلتها بسبب فعلة والدي الشنيعة، وتخجل من الالتزام بكنية السيد مُرقص الذي تبيّن أنه أحد عبدة الشيطان أخيرًا، علمتُ هذا بعد أن تركني وحيدة في مترله الشاسع المساحة مع كل قطعة أثرية محفور عليها الرقم " **666** " تمهيدًا لظهور الوحش الكبير، لقد قتل الشيطان هنا أطفالًا كُثر وقلوبًا كثر، وجعلني عاجزة عن تصور مدى بشاعته على مر العصور، لكنني الآن أخاف أن ألومه أكثر من هذا، لقد كنا نحن البشر نساعده طيلة الوقت ونشدُّ على يده، لم تكن الفاحشة سببًا وحيدًا ومفرطًا لظهوره بقوة بل كان سكوتنا عن تلك الفواحش هو السبب الأقوى، غابت إنسانيتنا عن الواقع، وتراجعت أدوارنا في إظهار الحق كثيرًا، أنا سارة وحزينة لأن الكل في هذه الدائرة يرتدي عباءة الدين ذريعة للحرب، مات سليم ورباب والآخرون في محاولة واهية لإثبات ماهية الدين الأمثل للعبادة ؛ اليهود هنا لأن الكنيس قال إن الدين يأمركم ببناء الهيكل واستعادة مملكة يهوذا، لكنه ليس صحيحًا، لقد أثبتت دراساتي في خارج إطار علم النفس وبعيدًا عن حالات الشيزوفرينيا التي تعاملت معها طوال سنين أن اليهود قُسِّموا بعد الهيار مملكة داوود وسليمان ثم تاهوا في الأرض وحُرقت كتبهم المقدسة.

من أين أتى هؤلاء القساوسة بتلك الفتاوى التي تأمر بقتل الرّضع والنساء وسلب الأرض.. لم أكن أتخيل يومًا أن أحدًا ما سيأتي إلى بيتي في باريس ثم يطالبني بالرحيل منه تحت تهديد السلاح وإن حدث هذا فمن حقي الدفاع عن نفسي ولو بإلقاء الحجارة،لقد ظُلم هذا الشعب كثيرًا، و ظُلمت إناثه كثيرًا، أنا هنا أيضًا لأدرك أن بطلًا واحدًا لا يصنع من جميع البشر من القومية ذاتها أبطالًا، لقد ظُلمت جميلة بفعل إحدى أبناء بلدها الذي تبين أنه أخوها، أنا هنا لأدرك أن القصص القديمة التي حاول سلبها الاحتلال ما زالت تتردد على لسان أطفال الأرض المقدسة منذ بداية الشر الذي يُدعى حربًا، وستأخذها سلمى على كاهلها كي تصل إلى الطفل الذي يسكن أحشاءها، أنا سارة طبيبة نفسية استمعت إلى قصصهن جميعًا، والأهم إلى قصة الأم الكبرى الحقيقية "فلسطين" وأعلم أن تعاطفي لا يكفي ومقاطعتي للمنتجات التي تحمل أسماء عبرية لا تكفي، وأن بقائي أيضًا لا يكفي... "

انتهت نشرة الأخبار المسائية المملة التي تُنذر بقرب رياح الطوز السعودية، على الأقل بدأت رياح الصحراء الخليجية تُبشر فلسطين وأراضيها بقربِ التحرير، لقد تعافت جميلة بمساعدة من سارة من بعض العقد النفسية التي تملكتها نتيجة صدمتها العاطفية الأخوية، وانتسبت مجددًا إلى إحدى جامعات القطاع بتخصص جديد، سلمى الآن تنتظر مولودًا جديدًا يُبشر باستمرارية الحياة رغم بشاعة المشاهد

التي مرّت بها، أما عن جمال فقد بدأ إضرابًا مفتوحًا عن الطعام منذ خمسة أيام بسبب اعتقاله الإداري، الأمر مختلف بالنسبة لأحمد فقد غادر قطاع غزة بلا رجعة منذ ذلك الوقت الذي أُزيلت فيه الأتربة عن الحقيقة، والأخبار عنه شبه مقطوعة، لعلك تسأل الآن عن سارة الطبيبة النفسية التي تعاملت مع ضحايا الحرب في القطاع، إنها الآن في داخلي تُخبرني أنها تحب الله الذي ستر إنسانيتها على الرغم من مشاهد العرّي الفاضح لتلك الإنسانية، لم يكن يربط جميع الأشخاص في عالمي هذا سوى فكرة الهروب من الواقع والتعري من بعض المبادئ التي قد تكون على هيئة ملابس أو ضمير أو حتى فكرة.. بعضنا يرتدي الكثير من الملابس، لكنه عارٍ، والبعض الآخر لا يستره إلا سقف السماء، ومع هذا يبقى مستورًا.

***

